وقائع سنوات الجمر

الحرية
للنشر والتوزيع

روايات أحلامي

• روايات أحلامى سلسلة رومانسية

تصدر عن الحرية للنشر والتوزيع

تقــدم...

«روايــات أحلامــى»

نهراً من الحب... الحب الذى يلون الدنيا

بألوان الربيع.. الحب حيث لا خريف أبداً..

الحب حيث الورود والرياحين..

حيث الحيــاة..

وروايات أحلامى... تُسهم بالحكايات عن زمن الحب

والأحبة فى هذا النهر الجارى والرائع «نهر الحب»

فتعالوا لنبحر فى نهر «أحلامى»

على أمواج الرومانسية.



النهـار وتصـبغ الدنيـا بلون الليل الطاغى.. وهنـاك فى
الأفق البـعـيـد بدت السـحـابات الـرمـادية الحـبلى بالماء
تتراكم وتتراكم وتقترب من الأرض حتى لكأنها تكاد تجثم
عليها وتلتصق بها كسلسلة جبال طويلة بلا نهاية وكئيبة
حتى الحـزن وكـانت «مـارتينـا» تطل من إحـدى شـرفـات
منزلها.. أو الذى كان منزلها كانت عيناها ترصدان ذلك
المشهد السماوى .. شعرت بشئ ما.. شئ ثقيل يجثم على
صـدرها.. وفجـأة أضاء البـرق كـان خيطـاً براقـاً لدرجـة
أرعـبتهـا.. فـاندفـعت داخل الشـرفـة بحـركـة لا إرادية..

وطرحت نفسها على أحد المقاعد العتيقة المتبقية من زمن جميل.. زمن كان حنوناً عليها يهدهدها.. كانت هناك أمها.. وأبوها وأخيها جون.. وفجأة.. وضعت يدها على جبينها كأنها تحاول أن توقف نزيف الذاكرة.. لكن دم الذكريات الدافئ راح هو الآخر يتسرسب كقطرات نور من رأسها ليشكل أمام عينيها صوراً باهتة وبعيدة.. بعيدة لكنها بعثت فى جسدها رعدة محببة.. وكأنها نشوى بإكتشاف أرض «بكر» لم تطأها قدماها من قبل.

تذكرت.. جلستهم حول المدفأة فى ليالى الشتاء.. إبتسامة

أبيها العذبة الرقراقة كقطرات الندى.. دعابات أخيها الشقية تذكرت.. حكايات أمها التى كانت عندما تحكيها.. تنفتح كل خزانات الحواديت والأساطير وتفتح أمامها «شاشة» فى قلب «دماغها» الصغير ترى فيه الأشباح الصغيرة.. و«سندريلا» والساحرة العجوز «وتتطط مع «الأقزام السبعة» وتجوب مع «آليس» بلاد العجائب وأرض الأحلام «آه» ... أطلقتها مشفوعة بزفرة حارة وتساءلت فى نفسها.. أين كل هذا الآن.. لقد ماتت أمها بعد صراع مع المرض وهى «مارتينا» ما زالت فى

التاسعة من عمرها.. وأخيراً ومنذ بضعة أشهر ماتا آباها وأخيها.. فى حادثة سيارة وجاء عمها «آرمسترونج» وزوجته «جينا» ومعهما إبنتهما «فانيسا» وابنها «صمويل»

فى البداية كانت الليدى جينا زوجة عمها تعاملها بحب وشفقة وأنطلت عليها الحيلة.. وبمرور الأيام بدءت «ليدى جينا» تقسو عليها .. وتذدريها أحياناً.. أما العم.. فلم يكن له ثمة وجود يذكر فى ظل جبروت زوجته المستبدة.. وابنة عمها «فانيسا» دائماً منشغلة فى شئونها الخاصة.. وما أتفهها...

و...آه للمرة ثانية وأيضاً مع زفرة حارة.. ومرة أخرى وضعت يدها على جبينها تحاول وقف نزيف الذاكرة.. الذى يبدء دوماً.. وردياً رائعاً.. ثم رويداً.. يتحول إلى لون أحمر قان كئيب ومثير.. وإندفعت فجأة.. دفعة ريح باردة من الشرفة.. أرعدتها كأن الهواء يتخلل من مسامها.. يخترقها حتى النخاع.. وانتها رغبة فى أن تغلق النافذة فى وجه الريح.. لكن شيئاً ما ضغطها من الداخل أرغمها .. رغماً عنها .. على أن تسلم نفسها لبرد الريح وقصف الرعد المدوى على أبواب آذانها.. وأحست بأنفاس دافئة

تلفح عنقـهـا من الخلف.. بدء الدفء يسـرى فى بدنهـا ودون أن تنظر خلفها قالت .. وكأنها دخلت لتوها فى حلم ملون جميل..

– صمويل

– نعم يا حبيبتى .. هو أنا

عندمـا لامست أنامله كتفهـا .. تهادى القمـر هابطاً نحـو الأرض.. إنطلقت موسـيقى كونيـة رائعة لا تدانيـها جمالاً وروعـة كل سيمفونيات بيتهوفن وموتسارت ومـزار وتوقف نزيف الذكـريات فـجـأة واخـتـصـر الزمـن .. كل الزمن عند أطراف أصابع حبيبها وابن عمها «صمويل»

– آراك تواجهين البرد وحدك

قـال كلمـاته بصـوت مـشبع بالحنين والحنان–فـقـالت وهى ما زالت فى حالة الحلم..

– لم أعـد وحـيـدة بعـد أن جئت .. وسـأواجـه بك كل أعاصير العالم .. وكل غضب الطبيعة وجمالها.

– آواه يا حبيبتى .. ما أروع رومانسيتك

- وما أروع حبك حين يسكنني فيهبني السكينة والرضا وكل إرادة الجبال...

إقتربت شفتاه من وجهها فتمحور العالم كله في دفء أنفاسه ورقصت كل أوتار أعصابها على إيقاع صدرها جرفها شعور طاغ بأن كل أحزان عمرها البالغ ثمانية عشر سنة تذوب فيّ المسافة ما بين شفتيه وخدها .. لم يبقى سوى مسافة بسيطة لتلامس وجهها شفتاه وتذوب هي الأخرى كما ذابت أحزانها.. وفجأة .. مر تيار هواء بارد إخترق المسافة التي ظنتها تلاشت .. وكانا جفناها شبه منطبقات تماماً .. فلما فتحت عيناها وجدته بعيداً .. بعيداً كان واقفاً عند مدخل الغرفة وعلى شفتيه إبتسامة مموهة ومائعة .. وأخيراً إنفرجت شفتاه ليقول..

- عذراً حبيبتي .. لقد أتيت لأخبرك أننا في إنتظارك بأسفل على مائدة العشاء...

شعرت بأحشائها تنقبض بقبضة الغيظ .. أحست أنه دائماً يمسك بمشاعره في يده ولا يسمح لعواطفه ولا لإنفعالاته بالإنفلات .. وبعد إبتسم إبتسامة أخرى شائهة إستدار عائداً إلى مائدة العشاء.

وبعد تناول العشاء وحتى أثناءه .. كانت مشاعرها تتأكد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة .. بل ودقيقة بعد دقيقة .. أن ثمة شعور بالنفور بل وشبه عداء - يتنامى تجاهها .. فبعد أن أستولوا على أملاكها وكل إرثها من والديها .. يتمنون الآن أن تذهب بعيداً حتى لا تذكرهم بما فعلوا .. ولم تكن مارتينا لتخطئ نظرات زوجة عمها «ليدى جينا» .. كانت نظرات غير ودودة بالمرة بل وفى أحيان كثيرة تكون مشحونة بالإزدراء ...

حتى كان يوماً لن تتساه مارتينا طيلة عمرها...

« أريد أن أقرر أمراً واحداً منذ البداية .. لا يمكنها البقاء هنا »

جاء صوت الليدى جينا هارولد واضحاً من خلال الباب المغلق لغرفة الجلوس، مسمراً «مارتينا» فى مكانها ويدها ممتدة لتدق الباب .. تدافعت الأفكار إلى رأسها وهى تستعيد كلمات «جينا» وبدت ان من الأفضل لها أن تستدير وتبتعد متظاهرة بأنها لم تسمع شيئاً ومعللة نفسها بأن مسترقى السمع عادة لا يسمعون شيئاً حسناً

عن أنفسهم. لكنها عرفت فى الوقت نفسه، انه ليس فى مقدور شئ إزاحتها عن مكانها خطوة واحدة.. وسيكون مبعث راحة لها أن تكتشف حقيقة مشاعر زوجة عمها نحوها على عكس معاملتها اللطيفة فيما سبق، قالت «فانيسا» بصوت خفيض ولكن نافذة الصبر.

– أواه .. أماه، ليس من السهل أن تلقى بها إلى الشارع إنها لا تملك أى تدريب أو مؤهلات. وتعرفين مثلى أنها ضيعت وقتها فى المدرسة .. ما الذى تستطيع فعله على وجه الأرض؟...

أجابت الليدى «جينا» ببرود:

– ليس ذلك خطأنا .. هى التى أضاعت الفرص التى أتيحت لها، فليس من حقها الشكوى الآن إذا لم يتحملها أحد بعد .. كان على أبيها وهو يدرك مدى تعقد قضية الميراث، أن يترك لها إحتياطاً من المال وهو ما يزال حياً»

ردت فانيسا

– ربما أنت على حق، لكن كان من المستحيل أن يتنبأ بأنه وجون سيقتلان معاً فى الحادثة نفسها. كان جون هو

الوريث. لذا كان هو من سيعتنى بأمر مارتينا.»

أحست مارتينا وهى تقف فى الصالة جامدة، بطعنة ألم من هذه الكلمات، لكن فانيسا كانت على حق. لم يكن بإمكان أحد التنبؤ حتى قبل شهور قليلة فقط، بأنها ستبقى وحيدة تماماً فى هذا العالم قبل أن يحل الظلام فى ذلك اليوم الخريفى البغيض.

ومهما يكن السبب فعدوانية جينا أصبحت واضحة مع الزمن ولم تبد إلا القليل من اللين نحوها منذ وصولها إلى هذا المنزل .. بل على العكس. شعرت جينا تتأمل بفرح التحول الذى حدث فى حياتها .. أما هى فقد أصبحت أكثر حذراً فى حديثها وسلوكها. متأكدة دائماً من أن السيدة «كوتى» مدبرة المنزل قد ذهبت إلى الليدى جينا لتتلقى تعليماتها، ومتذكرة أيضاً أن تدق الباب قبل أن تدخل الغرف حيث تكون العائلة مجتمعة. فجأة تحولت إلى غريبة فى بيتها .. كانت الليدى جينا تكرر القول بحدة:

– لا أدرى لم أصبحت شديدة الإهتمام بها يا فانيسا انت لم تهتمى بها فى يوم من الأيام. بشكل خاص»

قالت فانيسا فى ضيق

– أنا لست مهتمة بها حتى الآن. لكن علينا أن نهتم بما سيقوله الناس، خاصة أن أباها وأخيها. كانا محبوبين بين أهالى المنطقة. علينا أن لا نبدأ السير بخطوة خاطئة».

قالت الليدى جينا متنهدة:

– بالطبع لا .. يالها من مشكلة، لم أكن أعرف أن هذه الطفلة الحقيرة ستبقى تتسكع هنا بدون هدف. الم يكن هناك حديث عن مدرسة الرسم؟

ردت فانيسا

– هناك دائماً حديث عن شئ ما يشغل مارتينا، لكن أنت على صواب، أظن أن من المفروض أن تلتحق هذا الشهر بمدرسة «لينوكس» فى جارجسون، إذا ما قبلها هذا، خاصة بعد أن أصبحت مسألة الأجور صعبة بالنسبة إليها»

أطبقت أصابع مارتينا المرتعشة، على الرسالة التى دستها فى جيب سترتها قبل أقل من نصف ساعة. فقد لمحت من نافذة غرفتها ساعى البريد مقبلاً، وإنتابها

هاجس بما كان يحمله لها. ونزلت مسرعة إليه. فالرسائل تؤخذ جميعها إلى جينا قبل توزيعها على أصحابها. ومارتينا عرفت أن الرسالة تحمل طابعاً فرنسياً ستثير فضول زوجة عمها بدون شك.

وها قد تحقق هاجسها بالشر. حدثت نفسها بيأس. يبدو أن لفانيسا القدرة على التنبؤ. كانت رسالة لينوكس كريستى قاسية الوقع عليها رغم رقتها رجاء فيها ان الأعمال التى عرضتها عليه فى مقابلتهما فى لندن، كانت غير كافية لمنحها مقعداً مجانياً فى مدرسته. لكنه فى أى حال سيعود إلى لندن الربيع المقبل وبمقدورها أن تتصل به وتطلعه على أى عمل جديد تكون قد أنجزته، وربما سيقرر موقفه منها من جديد.

كانت خيبة أخرى لها. وأدركت أنها ورثت بعضاً من موهبة أمها المتوفاة وأنها تلميذة مجتهدة فى المدرسة. إلا أنها تشك فى قدرتها على المواصلة فى عالم الفن الذى يعج بالمنافسة الشرسة. واليأس هو الذى دفعها إلى مناشدة لينوكس كريستى للحصول على مقعد مجانى فى

مـدرسـتـه، ولم تـذكـر أسـم أمـهـا لـه. إذ بدا ذلك عـديم الفـائدة.. فـأمـهـا لم ترسم إلا القليل بعـد أن أنجـبت أطفـالهـا، بالإضـافـة إلى أن أعـمـالهـا كـانت تنتـمى إلى الطراز القديم.

قـالت جينا بما فيـه الكفـاية عن تلك الأعمـال حـالما وصلت إلى منزلهـا وتكاد مـارتينا تكون على يقين، من أن رسومات أمها المعلقة فى أرجاء البيت، سترمى قريباً فى أحد الأقبيـة لتحل مـحلها لوحـات من مـعـرض فى لندن ترتاده جينا.

الـــرحيل
الفصل الثانى

كانت جينا التى تتكلم ثانية موجهة حديثها لإبنتها فانيسا «وهل أنت متأكدة أنها تتسكع هنا بدون هدف؟ كانت لا تفارق «صمويل» قبل أن يحدث ما حدث، ربما أنها تأمل فى إحياء علاقتها به ثانية

أطلقت أم صمويل ضحكة عالية وهى تقول.

«لا أظن أنها ساذجة إلى هذا الحد. ربما إهتم بها صمويل حين كان «والدها وأخيها» أحياء. لكن الظروف تبدلت الآن كثيراً. صمويل ليس غبياً. إنها فتاة جميلة. أنا أقر بذلك، أما إذا كانت تأمل منه فى شئ أكثر من علاقة شيقة وعابرة فأخشى أن تصاب بخيبة أمل. يستطيع

صـمـويل أن يجـد لنفسـه من هى أفضل من إبنه عم معدومة الحال».

قالت فانيسا بنبرة ساخرة.

« أوه .. آماه ..»

لكن مـارتينا لم تنتظر لتسـمـع المزيد. إسـتـدارت وأسرعت إلى غرفتها عبر الصالة المفروشة بسجاد ثمين.

منذ الأسـابيع القليلة الماضـيـة، أضـحت هذه الـغـرفة مـأواها إنهـا غـرفة الجلوس الصـغـيرة التى كانت تخص أمهـا. وهى من الأماكن القليلة فى البيت التى لم تمتد يد جينا إليهـا بالتـغـيير بعدأن أغلقت مارتينا الباب وراءها والقت بنفسـهـا على المقـعـد الطويل. ثم أطلقت دمـوعـهـا الغـزيرة ها هى الآن تعـانى الأسى والذل والغـيظ مـعـاً. وهالها التفكير أنه ما كان هناك إلا القليل حتى تتجرف فى حب صـمـويل لم يكونا مـهـتمين ببعضـهـمـا حين كـانا صـغـيرين وبعد أعـوام التـقـيـا فى إحدى الحـفـلات فى الصـيـف الماضى وتعرفا على بعضـهـمـا بصـعـوبة، لكن سـرعـان مـا أخـذتهـمـا العـاطـفـة أو هذا مـا ظنتـه هى ..

وعليها الآن أن تعترف بأنها هى التى أفتتنت بصمويل. أما هو فكان يأمل فى شئ آخر عضت أطراف أصابعها. ها هى الأمور أخذت تتكشف. إنها لم ترى صمويل منذ وفاة ابيها وأخيها إلا مرات قليلة. إنه منهمك فى أشغاله ولا يأتى إلى المنزل إلا فى نهايات الأسبوع. لكنه حتى فى هذه المرات لم يبد إهتماماً كبيراً بها. كانت تعلل عدم إندفاعه نحوها بأنه إحترام منه لحزنها. لكن الحقيقة ظهرت الآن وهى أنه لم يعد هناك شئ يأمل فى كسبه منها.

كانت تستغرب أحياناً، لماذا كان صمويل يسحب نفسه منها وهما فى ذروة العاطفة. ألقدرته على كبح جماح نفسه أم لنفوره منها؟ .. ومهما كان السبب فقد كان كافياً لأن يقيم حاجزاً بينهما من الآن .. فصاعداً.

حين تعود مارتينا بذاكرتها إلى الوراء، تجد أن أمها لم تقل الشئ الكثير عن حياتها فى كورنوول .. كانت تبدو سعيدة هناك، أو هذا ما استنتجته من أحاديثها. إلى جانب هذا فإن إسمها «كورنوولى» عريق، إختارته أمها بإصرار بعد أن عارضه الأب تحسباً من إثارة ذكريات حزينة، ووصف زوجته بأنها «رومانسية» رغم أنه خضع فى

النهاية لإرادتها كعادته دائماً. واستعمل العبارة نفسها كما تتذكر مارتين، حين تتأمل «تريفنيون» من اللوحات: البيت فوق قمة المنحدر، المنجم المهجور، القرية الصغيرة فى ميناء «بورت فينور»، والساحل بصخوره الدكناء الشامخة كأنها حراس من الجرانيت تقاوم هجوم الأمواج العنيفة.

إستعادت مارتين وجه أمها، وهى تخاطب زوجها «والد مارتين» وكأنها البارحة:

– لماذا تقول هذا؟ لم أكن أرسم مجرد مكان، كنت أرسم شبابى وكل ما عرفته من سلام وطمأنينة وحب».

ثم نهضت وسارت إليه واحاطته بذراعها وأراحت خدها على يده، وهى تقول له.

«أعرف أنك على حق لكن دعنى لأوهامى»

حين أعادت مارتينا تلك الكلمات ما هى إلا نقوش على ضريح آمالها. ومن ثم جمدت فى مكانها حين سمعت وقع خطوات قادمة عبر الممر. إستدارت حين إنفتح الباب ودخلت الليدى جينا، وهتفت بشئ من الحدة.

– أوه هنايا مارتين، لقد بحثت عنك فى كل أرجاء

البيت، كنت أتساءل فيما إذا كنت راغبة فى الإنضمام إلينا للغداء»

سكتت مترددة للحظة ثم أردفت

- «إتصل صمويل بالهاتف قبل قليل وقال انه سيجلب معه صديقة وفكرنا ...»

توقفت وأخذت تحدق بوجه مارتينا بترقب.

عضت مارتينا شفتيها. إذن سيجلب صمويل معه آخر حبيباته للغداء، وأمه تريد أن تعرف ماذا سيكون رد فعلها. هل ستقبل الأمر بدون إهتمام، أم ستغضب وتثور، انتابها الغيظ، لكنها قالت متظاهرة باللامبالاة.

«لطيف جداً .. لكن إذا كان وجودى يسبب أى إرباك فإنى سأتناول وجبة خفيفة فى الخارج»

ابتسمت الليدى جينا برياء وهى تقول:

«أوه يا عزيزتى، هذا أمر غير متوقع منك أبداً. كم أنت حمقاء أحياناً. بالطبع لا نريد أن نتدخل فى شؤونك فأنت إمرأة ناضجة الآن، وطبيعى جداً أن ترغبى فى أن

تكونى مستقلة. ولا نريد أن نجعلك تشعرين بأننا نكبح رغباتك بأى شكل من الأشكال».

توقفت عن الكلام ثانية وفى صوتها من إهتمام وقلق أمومى، وكأنها تريد أن تكسب ثقة مارتينا. لكن مارتينا قررت أن لا تنخدع بها ولو للحظة... وحتى ولو لم تكن قد سمعت ذلك النقاش القصير فى غرفة الجلوس فإنها أدركت أن نبرات جينا ومواقفها كلها تكشف أنهم تحملوها ما فيه الكفاية، وينتظرون رحيلها بفارغ الصبر.

فجأة أحست أن أعترافها بالعجز وموت آمالها فى أن تكون «رسامة» هو أكثر مما تستطيع تحمله.

قفزت إلى ذهنها فكرة غريبة، وقبل أن تناقش مدى الحكمة فيما قررته. تكلمت قائلة.

«لا تقلقى بشأنى بعد الآن، يا زوجة عمى جينا، قررت أن أخبرك بعد الغداء أننى ذاهبة من هنا»

ردت جينا بلهفة عجزت أن تخفيها.

- «إلى أين»؟.

قالت مارتينا ..

– فى الواقع لقد تسلمت رسالة هذا الصباح فيها دعوة للبقاء مع أقرباء أمى فى «تريفينون» حتى يحل موعد ذهابى إلى «كورنوول «مكان رائع ومناسب للرسم، سمعت أمى تكرر دائماً أنها أنجزت أفضل رسومها هناك»

أنهت كلامها بحنق وهى تفكر أن «جينا» كانت متلهفة لسماع هذا الخبر. إستقرت نظرات الليدى جينا على مجموعة الصور البادية خلف مارتين، ثم عادت لتحدق فى وجهها باستغراب قائلة.

– «هل لأمك أقرباء فى كورنوول؟ لم أكن أعرف ذلك» قاطعتها مارتينا قائلة.

«أقرباء بعيدون جداً .. الله وحده يعرف كم عددهم»

ثم بحثت فى ذاكرتها عن أسماء لتسند روايتها.

«أنه الخال دومنيك الذى بعث الرسالة»

كان هذا هو الأسم الذى تكرره أمها دائماً: دومنيك من علم إبنه المدينة تسلق الصخور حافية القدمين،

تجديف القارب، إصطياد السمك، وهو من قص عليها تلك الأساطير التى تذكرتها مارتينا، كقصص ما قبل النوم. قصص عن الأشباح الصغيرة التى تقطن منجم القصدير، والتى تتنبأ ضربات فؤوسها بحدوث الكوارث»

وفجأة قطع صوت الليدى جينا خواطر «مارتينا»

- إنها مفاجأة.

ثم أضافت

- أظن أنك تعرفين ما تفعلينه. لكن هل سبق أن التقيت بأحد من هؤلاء الأقارب؟.

- لا .. لكنى أحس بأنى أعرفهم جيداً. لقد حدثتنى أمى كثيراً عنهم».

شعرت مارتينا بالذنب لكل هذا الكذب التى تسرده..

وقالت الليدى جينا..

- حسناً إنه لعطف كبير منهم أن يعرضوا عليك بيتاً أمل ألا تستغلى كرمهم يا مارتينا. أنت لا ترضين أن تكونى عالة على الآخرين طول حياتك .. لكن إذا كان

الأمر مجرد أسابيع فأظن أنه لن يكون ثقيلاً».

توقفت للحظة ثم أضافت متسائلة.

- والآن، ماذا بشأن الغداء...؟

قالت مارتينا بإصرار وحسم.

- أرجو ألا تقلقى بشأنى، أظن أنى سأذهب لأحزم أمتعتى»

- «مثلما تشائين»

قالت الليدى جينا هذه الكلمات بدون أن تهتم بإخفاء سرورها من جريان الأمور بهذا الشكل، إستدارت نحو الباب ثم ترددت وكأنها تذكرت شيئاً ما،

وقالت.

- إذا كنت ترغبين فى أخذ أى من هذه الرسوم، فلا تترددى فى ذلك يا مارتينا، لقد اتفقنا أنا وعمك الليلة الماضية أنه من الإنصاف أن تحتفظى ببعض التذكارات من والدتك، نعم أنه ليس هناك ما يدعو لفتح جروح قديمة».

قالت مارتينا وهى تبذل أقصى ما لديها من جهد

لتبدو هادئة ومبتسمة

- شكراً لك...

واستدارت جينا خارجة من الغرفة...

إلى هذا الحد وعندما أصبحت مارتينا وحدها بعيداً عن عينا «الليدى جينا» حتى انهارت باكية.. بكت.. وبكت وهى تشعر بأن شيئاً ما بداخلها قد انكسر أو شرخ.. وها هو أول من أحبت وظنت أنه كان يبادلها الحب .. يأتى لمنزلها أو الذى كان منزلها .. بقتامته الجديدة.. أحست بأن كل الإذلال والمهانة التى فى العالم قد تجمع عليها وهى تقف عاجزة عن رد أى صفعة مما تلقتها.. ما أبشع الشعور بالعجز إزاء ما يصيب الإنسان من أزى .. ولكنها قررت أخيراً أن تلملم أشلاء كبريائها وترحل بعيداً عن هذا البيت وكل ما يحويه من مذلة لها.

وحزمت أمتعتها ولملمت رسومات أمها فى رزمة أنيقة وحملت حقيبتها وبدءت رحلتها للمجهول.

دموع من الماضى
الفصل الثالث

لم تتحسن حالة مارتينا النفسية حتى حين وصلت إلى بنزاس وظلت كآبتها كما هى. كانت السماء الرمادية ما تزال تمطر، مما زاد من شعورها بالوحدة والضعف. تمنت لو أن قدرتها المالية تسمح لها لكى تستقل سيارة تاكسى إلى تريفينون، لكن ذلك سيكون مجازفة خاصة. وهى لا تعرف كم يبعد المنزل من بنزاس. للحظات راودتها فكرة العثور على مكان بنزاس لقضاء الليل فيه. ولكن سرعان ما أبعدت تلك الفكرة على رأسها وأيقنت ان ما هو مهم الآن هو الوصول إلى تريفينون وإبداع الرسوم هناك. سارت تحت المطر حاملة حقيبة الظهر على كتفها،

بينما الحقيبة الثانية فى يديها الأخرى وكان شعرها مبتلاً وقد تهدل حول وجهها المبتل هو الآخر. من مكتبة صغيرة اشترت خريطة لمنطقة. ودخلت إلى مقهى كان من حسن الحظ إنه ما زال مفتوحاً حيث فى مقدورها الإحتماء فيه من المطر وتأمل الخريطة بتأنى لم تعثر على تريفينون فى الخارطة لكنها عثرت على بورت فينور بينما هى تشرب قهوتها وتتناول سندويشتاً من الجبن وعثرت على المضيق الأسباني أيضاً. فعرفت الإتجاه الذى يجب أن تسلكه. حين تركت المقهى واجهتها ريح قوية كادت أن تفلت الباب من يدها وتفقدها توازنها للحظة. سيطرت على نفسها وهى تئن من الألم والضعف. لقد حدثتها أمها كثيراً عن الرياح الجنوبية الغربية العاصفة فى هذه المنطقة. لكنها لم تكن تتوقع إن عاصفة كتلك ستصادفها حالما تصل إلى هنا. وما يقلقها هو المصير المجهول الذى ينتظرها، لكنها لم تجد بداً من الإستمرار. فغيرت وضع حقيبة السفر لتريح كتفها، ثم احنت راسها عكس اتجاه الريح الشديدة وواصلت سيرها. فكرت في شيئ واحد هو. تري هل أحسنت عملا بمجيئها إلى هنا،

أم أن ذلك مجرد جنون ارتكبته بدون وعى. وكانت فى أعماقها تتوسل إلى الله أن يكون العجوز دومنيك رجلاً طيباً وشفوقاً، وان لا يستجوبها بالكثير من الأسئلة وهى على عتبة داره.

حين أصبحت فى موقف الباس، اكتشفت انها ليست وحدها كانت هنالك فتاة أخرى تنتظر وقد احتمت بمدخل أحد الأبواب من المطر والريح. وهى فتاة قصيرة وممتلئة، ترتدى رداءً طويلاً اسود.

وكان وجهها مدوراً ودوداً، ابتسمت الفتاة لمارتينا، بينما هذه تضع حقيبتها على الأرض وتنزل حقيبة الظهر عن كتفها. قالت الفتاة.

«انه يوم بائس حقاً .... »

«نعم. الظلام يحل بسرعة فى مثل هذا الوقت من السنة»

أجابتها مارتينا وهى تنظر فيما حولها.

«هل تقصدين مكاناً بعيداً؟»

«لست متأكدة فى الحقيقة. أحاول الوصول إلى بيت يدعى تريفينون»

«تريفينون...؟»

، قالت الفتاة بدهشة ثم أضافت :

«إنه على مسافة بعيدة. عليكى أن تنزلى فى مكان يدعى تريفينون كروس....»

وصمتت للحظة ثم قالت وهى تحدق فى وجه مارتينا.

«لا أريد أن أكون فضولية، لكن هل أنت متأكدة من أن ذلك هو المكان الذى تقصدينه؟»

لم تكن مارتينا فى الواقع واثقة من أى شئ، لكنها رفعت وجهها بثقة لم تكن تملكها فى الحقيقة. وقالت

«بالطبع أنا واثقة. إننى أبحث عن السيد/ تريفينون.

«دومنيك تريفينون. هل تعرفينه؟»

تلعثمت الفتاة ثم تمتمت.

«لا أعرفه شخصياً، انه فى الحقيقة لا يستقبل أحداً فى مملكته الخاصة»

همست مارتينا لنفسها: إذاً هذا هو السيد الذى عقدت عليه آمالى. وقالت.

- أظن إنكى تبالغين فى حقه

- بل إنه أسوأ من هذا. متكبر وفظ الخلق. متمسك بمنزله وأراضيه على الشاطئ. وكأنه يدافع عن أخر قلاع كورفوول. إنه يكره السياح ولا يمد يد العون لأحد ولكن إذا كان يتوقع وصولك فسيكون الأمر على ما يرام.

اشتدت دقات قلب مارتينا وفكرت. إذا كان هذا هو ما عليه العجوز الكريم، فكيف سيكون إستقباله لها؟.

- يبدو انكى تعرفين الكثير عنه.

سألتها مارتينا.

- ليس كثيراً فى الواقع. لكنى أملك صالة لصنع التحف الفخارية مع أخى، وأردنا توسيعه ببناء مخزن ملحق به، لكننا فشلنا فى الحصول على اجازة البناء، وكان السيد دومنيك تريفينون وراء حجب الإجازة عنا. انه يخشى ان يجلب ذلك المخزن، السياح إلى منطقته فهو يعتز بوحدته جداً»

شكراً على هذا التحذير، قالت مارتينا لنفسها، ونظرت إلى ساعتها، سيصل الباص فى أى لحظة، وما

يزال هناك متسع من الوقت لتغير رأيها. أحقاً هذا هو الرجل الذى تحدثت عنه أمها بكل ذلك الحنين، أم ان الزمن قد غير من طباعه إلى هذا الحد؟.

– بالمناسبة، أنا بيدى براد شو ... كنت أتجول فى بعض مخازن الهدايا، أحاول بيع بعض منتجاتنا، يبدو انه ليست هناك طلبات كثيرة فى الوقت الحاضر.

مارتينا قدمت نفسها أيضاً وهى تومئ برأسها. فقالت بيدى باهتمام وهى تبتسم.

«لكن مارتينا اسم كورنوولى، يبدو انكى من هذه المنطقة.

«لست من هذه المنطقة، لكن أمى قضت معظم صباها هنا، لذا فاختيارها لهذا الإسم لى طبيعى فيما أظن»

«أظن ذلك. أوه لقد وصل الباس أخيراً»

صعدتا إلى الباس. قالت بيدى.

– ستنزلين بعدى بمنطقة، ثم تنحرفين يساراً وتستمرين فى الشارع نفسه الذى يوصلك إلى المنزل مباشرةً.

أرادت مارتينا ان تستفسر الكثير من بيدى عن

تريفينون، لكن الزحام فى الباس حال دون ذلك.

كانت بيدى رفيقة لطيفة، تمنت مارتينا لو تطول رفقتها لها، وتأثرت كثيراً حين قالت انها تقترب من منطقة نزولها. وادعت مارتينا قائلة:

- اتمنى لكي حظاً سعيداً. وإذا ما رغبت فى البقاء فترة هنا. فأرجو ان تزورينا فى صالة الفخاريات.

- سأحاول ...

أجابت مارتينا ميتسمة...

وحين نزلت بعدها بمنطقة، وابتعد الباس عنها، اخذت نفساً عميقاً ومشت بضع خطوات وجدت نفسها بعدها فى ظلام. كانت الرياح تهب عاصفة وتبعثر خصلات شعرها على وجهها. شدت سترتها على جسدها بإحكام، وفكرت بأنها كانت تتوقع نفسها فى أى مكان فى هذا العالم غير هذا المكان المظلم البارد فى هذه المنطقة الريفية، واصلت سيرها باتجاه ضوء تقاطع الشارع، حيث انحرفت هناك إلى اليسار حسبما أوصتها بيدى. المطر ما يزال يهطل وصوت هدير البحر يأتيها واضح. وجدت

نفسها فى درب مظلم ضيق محاط من جانبيه بسياج نباتى عال، ولم يكن هناك أى ضوء باستثناء ضوء القمر الخافت الذى كان يطل بين حين وآخر من بين الغيوم.

وتذكرت انها وضعت مصباحاً يدوياً يعمل بالبطاريات فى حقيبة الظهر، فأنزلت الحقيبة وبدأت تفتش فيها حتى عثرت عليه. وحين أشعلته كان نوره ضعيفاً غير انه كان كافياً لإضاءة الطريق أمامها.

سارت حوالى عشر دقائق، وتمنت لو ان لوحة الإرشاد التى صادفتها فى بداية الدرب قد أعطتها فكرة عن المسافة التى تفصلها عن المنزل.

فجأة سمعت صوت ارتطام عنيف بالقرب منها، كان الصوت قوياً حت طغى على صوت هبوب الريح رغم شدتها وعلوها.

كانت شجرة قوية اقتلعتها الريح العاصفة وألقتها على الطريق، ولحسن الحظ لم تصب مارتينا بأذى. لكنها ارتعبت وتوترت أعصابها، غير انها استردت هدوئها بعد فترة قصيرة امسكت غصناً منها وحاولت تحريكها حتى

تبعدها على الطريق لكنها فشلت. وعرفت ان هذه الشجرة ستسبب كارثة لأى سيارة متجهة إلى البيت أو عائدة منه.

فقررت ان تهرع إلى البيت أينما كان وتخبر من فيه بالأمر غير انه لم يمر سوى لحظات حتى سمعت محرك سيارة قادمة من بعيد، فالتفتت فيما حولها وأخذت تبحث فى الظلام حتى لمحت ضوء مصباحين قويين متجهين نحوها وأدركت ان السيارة قادمة إلى تريفينون، وانها ستصل هنا فى أية لحظة وسائقها يجهل الخطر الذى ينتظره فى الطريق ركضت إلى منحنى الطريق ووقفت فى وسطه وهى تحرك مصباحها عل ضوئه يسترعى انتباه السائق واقترب صوت المحرك. حتى كاد ان يصم اذنيها. وبغتة سمعت صرير عجلات تتوقف بعنف، وان جسدها قد القى بقوة نحو السياج ثم أحست بيدين قويتين ترفعانها وتوقفانها على قدميها.

كان رجلاً طويلاً أسود اللون، وكانت سحنته غاضبة وهو يقول.

– مَا الذى تفعلينه هنا، أيتها الحمقاء؟ كنتى على وشك أن تموتى!.

حررت نفسها من يديه بغضب وانفجرت فى وجهه قائلة وهى تلهث.

- لا تقل اننى حمقاء. وماذا عن نفسك، انك تقود سيارتك كالمجنون فى هذا الليل المظلم. لو دهستنى لكنت انت المخطئ!.

- هل تسمحين أحيطك علماً بأن هذا طريق خاص، ولا يتوقع أحد ان يصادفه عابر مجنون مثلك.

- لست مجنونة، وانما كنت أحاول إنقاذ حياتك أو على الأقل أن أحول دون اصابتك بجروح.

ساد صمت ثقيل، قطعه صوته وهو يتسائل باستغراب.

- ماذا تقصدين؟

- هناك شجرة واقعة على الطريق خلف هذا المنحنى، كنت ذاهبة لأخبر أحداً فى البيت حين سمعت صوت سيارتك وفكرت انه من الأفضل أن أبقى وأحذرك حتى لا تصطدم بها.

- انتظرى هنا....

قال بغتة وذهب إلى سيارته، أدار محركها وصار بها إلى ما بعد المنحنى. ثم أوقفها هناك، وعاد ماشياً.

- يبدو اننى أدين لكى بكلمة اعتذار.

قال بهدؤ ثم أضاف متسائلاً.

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟ هل أضعت الطريق؟ هذا طريق خاص يؤدى فقط إلى ...

قاطعته مارتينا قائلة

- إلى تريفينون: اعرف ذلك. اننى لم أضع طريقى لكننى ذاهبة إلى تريفينون، أريد أن أرى السيد دومينيك تريفينون.

- حقاً؟ وهل السيد تريفينون يتوقع وصولك؟

- كلا، وقد حذرنى أحدهم قبل قليل بأنه متعجرف جداً، ويحسب نفسه ملكاً غير متوج عل منطقة كورنوول ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً. فأنا ذاهبة لمقابلته.

- ولماذا تصرين على مقابلته؟ اليس من الأفضل أن تبتعدى عنه وقد عرفت طباعه؟

- لابد أن أراه، أريد أن أسأله معروفاً.

- وهل تعتقدين أنه سيلبى طلب عابرة سبيل غريبة مثلك؟

– بداخلى شعور بأنه سيساعدنى، بالإضافة إلى أننى لست غريبة عنه تماماً.

– ماذا تعنين بأنك لست غريبة عنه تماماً؟.

أحست مارتينا أنها تحدثت أكثر مما ينبغى، لذا أجابته قائلة:

– آسفة، هذا أمر يعود لى.

ثم أضافت بعد توقف قصير:

– أظن أنك صديق مقرب منه، وأنك فى طريقك إليه وستخبره عما قلته عنه، لا تتردد فى ذلك، فلن يغير ذلك شيئاً.

حاولت أن تتحرك من مكانها، لكن ألماً شديداً فى أطرافها شلها عن لحركة.

– هل تأذيت؟ لقد صدمتك السيارة بعنف

– أوه لا تقلق. أظن أننى ما زلت قادرة على المشى فى منتصبه، دعينى أفحصك، ربما أصبت بكسر

وقفت مارتينا فى مكانها وأسنانها تصطك من الغيظ والألم وهو يفحص أطرافها بدقة وعناية.

– شكراً لك. يبدو أنك طبيب بيطرى.

– ليس بالضبط. من المفيد أن أحذرك من الكلاب. إنها غير متعودة على إستقبال الغرباء فى البيت.

– يا الهى ...!

هتفت مارتينا بخوف. غير أنه كان من العسير عليها أن ترى وجهه بوضوح حتى تعرف فيما إذا كان يمزح أم أنه جاد فى قوله.

وسألته:

– وهل هى كلاب شرسة؟.

– ذلك يتوقف عليك. لا تحاولى إثارتها

– أتظن أن الأمر سيكون أفضل لو عرفت أسماءها؟

– أظن ذلك. أحدهما يدعى كوكسى والآخر ماكس

حملت مارتينا حقيبة الظهر على كتفها والحقيبة الأخرى فى يدها، وهمت بالسير لكنه قاطعها قائلاً.

– سؤال أخير لو سمحت. كم من الوقت تودين البقاء مع تريفينون؟.

أرادت أن تقول له أن جل ما تطلبه الآن هو قضاء هذه الليلة تحت سقف يحميها، لكنها ضبطت لسانها وقالت مازجة.

– لنر كيف تسير الأمور، ربما سيهوانى ملك كونوول.

سيهتم بك حتماً.

قال ذلك بنبرة لطيفة وهادئة.

***

سارت فى طريقها مرفوعة الرأس، متحاملة على نفسها بدون أن تعرج حتى اجتازت منحن الطريق وأصبحت خارج حدود ضياء مصابيح السيارة. كانت الريح قد خفتت لذا بدا صوت إرتطام أمواج البحر بالساحل أكثر وضوحاً وكان المطر قد توقف أيضاً.

وعلى ضوء القمر الذى ظهر من بين الغيوم المتسارعة، بدا هيكل البيت واضحاً، المداخن والسقف، وعلى جهة اليسار كان هناك ضوؤ مصباح فى إحدى نوافذ. أحست مارتينا بموجة حنين تغمرها وهى تتذكر رسوم والدتها، وامتلأت عيناها بالدموع. وعلى مقربة منها نبح كلب وتبعه كلب ثان. وفى البيت أضئ ضوء آخر، وكان أهل البيت

يستجيبون لنداء الكلاب. بالطبع قالت مارتينا لنفسهاأنهم ينتظرون زائراً. الرجل الذى قابلته فى الطريق جمعت كل شجاعتها واتجهت نحو الباب الرئيسى. وقرعت الجرس المثبت على جانب الباب. أخذ الكلبان ينبحان ويدنون منها، فنادتهما باسميهما فتوقفا قربها. ثم سمعت وقع أقدام قادمة من الداخل، سرت رعشة برد فى أطرافها فدست يدها فى جيبها، لتخفف من إنفعالها. وانفتح الباب الثقيل محدثاً صوت صرير عميق طالعها رجل بدين وقصير، عيناه تلمعان تحت حاجبين رماديين كثينى، وأخذ يحدق فيها بإرتياب. ثم قال بإمتعاض.

- يبدو إنك أخطأت البيت الذى تقصدينه

إقتربت منه مارتينا أكثر وإبتسمت له وهى تفكر

ترى أهذا هو السيد تريفينون؟ يبدو حقاً مثلما سمعت عنه من جفاء.

- السيد تريفينون؟

سألت مارتينا بنبرة حاولت أن تكون واثقة

- غير موجود

– أهو مسافر أم أنه خارج البيت؟

– هذا ليس مَن شأنك. إذهبى إلى سبيلك.

أجابها الرجل، بينما فى تلك اللحظة رن جرس الهاتف فى مكان ما من البيت. وهم الرجل أن يغلق لاباب وهو يقول

– على أن أجيب على الهاتف.

لكن مارتينا هتفت به متوسلة.

– من فضلك. لقد أتيت من مكان بعيد هذا اليوم. إذا كان السيد تريفينون غير موجود الآن فهل بوسعى الدخول وإنتظاره؟

– لا

أجابها وقد بدا نبرته أنه فقد صبره، ثم أضاف حانقاً.

– لو كان السيد تريفينون راغباً فى رؤيتك لأخبرنا بمجيئك إتصلى غداً بالهاتف وخذى موعداً لرؤيته .. والآن إذهبى...»

وانسحب وهو يغلق الباب، لكن صوت إمرأة هتفت به

من الداخل.

- إنتظر يا زاك، دعها تدخل.

- ماذا تقولين؟

- قلت دعها تدخل. الم تسمع؟

فتح الرجل الباب، ودخلت مارتينا ووضعت حقيبتها على الأرض. ثم أنزلت الحقيبة الثانية من على كتفها

تأملت المرأة، مارتينا بريبة، وقالت لها:

- يمكنك الإنتظار فى غرفة المكتب حتى يحضر السيد. هناك نار فى المدفأة... هل تريدين كوباً من مشروب ساخن؟

قبلت مارتينا وهى تشعر بالسعادة لسماحهم لها بالدخول بعد أن كادت تمكث فى العراء فى هذا الليل البارد. وزادت سعادتها وهى تدخل إلى المكتب. طاولة كتابة عتيقة، تتكرس الأوراق عليها. بالإضافة إلى آلة كاتبة قديمة. مقعد طويل مغطى بقماش بال موضوع أمام المدفأة، وإلى جانبة مائدة صغيرة. وعلى الأرض فرشت

سجادة مربعة حمراء.

جلست أمام المدفأة ومدت يدها المرتعشة نحو النار فسرى الدفء فيها، لكن ما رأته لم يعطها شعوراً بالتفاؤل، وبدا لها واضحاً أن تريفينون يعاني من أفول المجد منذ أن رأته أمها آخر مرة. ويبدو أن هذا هو سبب عدم عودة أمها إلى هنا مرة أخرى. وربما أن تريفينون نفسه لم يشجعها على المجئ، حتى تبقى تتذكر الأشياء كما كانت، وتتذكر الناس هنا كما كانوا.

فتحت حقيبة الظهر التى كانت إلى جانبها، وأخرجت الرزمة التى فيها الرسوم، وبعد تردد قصير قامت ومشت نحو الطاولة ووضعتها فوقها.

كانت هناك مجموعة من الصحف والمجلات ملقاة على طرف المقعد بإهمال، تفحصها بسرعة وهى تعود إلى مكانها، كانت متنوعة تعطى إنطباعاً عن ذوق وشخصية مقتنيها. وهناك صحف محلية بينها، أخذت إحداها وبدأت تطالع صفحتها الأولى، لكنها لم تكن قادرة على التقاط الكلمات بوضوح، وأدركت مدى تعبها.

دخلت السيدة حاملة صينية، وضعتها على المائدة، وتأملت مارتينا بنظراتها طويلاً. فقالت مارتينا.

– هل.. هل هناك شئ ماء على غير ما يرام؟

– أنت تذكرينى بشخص أعرفه.. لا اقدر على تذكره الآن لكنى سأتذكره....

خفق قلب مارتينا بشدة. ترى هل هذا الشخص هو أمها؟

لكن قبل أن تسألها، فتح الباب وجاء صوت زاك وهو ينادى

– نيزا!

أجابته المرأة ثم خرجت إليه.

أسندت مارتينا ظهرها إلى المقعد باسترخاء بعد أن إنتهت من شرب الشاى. وأغمضت عينيها وهى تشعر بالدفء والطمأنينة بالرغم من جهلها بما سيحدث. وبدأت صور عديدة تتراقص فى ذهنها وهى تسترخى اكثر فاكثر، ودفء النار يسرى فى جسدها ويبدد الألم من أطرافها تراءت لها وهى فى غفوتها أشجار تتراقص فى مهب الريح، وكلاب تشع عيونها ببريق ذهبى، رأت بيدى أيضاً.

لم تعرف كم من الوقت أخذها النوم، لكنها إستيقظت فجأة واستوت فى مكانها. كانت الغرفة أكثر إضاءة... فأدركت أن أحداً ما قد أضاء المصباح الرئيسى الذى على الطاولة. وكان هناك رجل فى الغرفة، عرفته، أنه نفسه الذى إلتقته فى الطريق، كان أسود اللون، وجهه نحيل وحاد التقاطع كأنه من حجر الجرانيت، وله أنف مرتفع وشفتان ممتلئتان وغامقتان، وكان منحنياً على رسوم أمها يحدق فيها بعد أن فتح الرزمة.

إلتفت إليها، وحدق فى وجهها بوجه غاضب، فسرت فى جسدها قشعريرة، حاولت أن تقنع نفسها بأنها ما زالت غارقة فى حلمها، لكنها أدركت أن الأمر حقيقة وليس حلماً حين تكلم بغيظ.

– من أنت بحق الجحيم؟ وماذا تفعلين هنا؟

ثم أضاف بعد صمت قليل

– عندك دقيقتان لتجيبى على سؤالى قبل أن ألقيك إلى الخارج.

***

حنين فى الليل
الفصل الرابع

غرقت مارتينا فى الصمت للحظة ثم قفزت واقفة بإنفعال غير مبالية لشعرها الذى إنحلت عقدته وانساب على كتفها مثل شلال من ذهب وصاحت بغضب:

– ولكن من أنت حتى تحدثنى هكذا؟ ولماذا فتحت تلك الرزمة؟ إنها خاصة للسيد دومنيك تريفينون. ثم بأى حق دخلت على هنا؟

– أنت التى دخلت هنا. وليس أنا، يكاد وقتك أن ينتهى لذا أنصحك بأن تجيبى على أسئلتى.

– لا أرغب فى قول شيئ. أريد التحدث إلى السيد

تريفينون فقط

- أظن أنك لا تمارسين لعبة سمجة معى، وأنك حقاً لا تعرفين من أنا».

جمدت مارتينا فى مكانها وعيناها تحدقان فى وجهه بدهشة. ثم همست.

- كلا .. لا يمكن ذلك .. أنت لست...

- بل أؤكد لك، أنا دومنيك تريفينون. أنا من أطلق عليه لقب ملك كورونول غير المتوج، وهذه هى قلعتى.

- «كلا .. لا أصدق ذلك. لا يمك أن تكون أنت دومنيك تريفينون. أنت لست كبيراً فى السن».

- أهذه كلمة إطراء؟.

- «كلا .. إنها ليست كذلك ولكن حسب ما أعتقد أن دومنيك تريفينون الحقيقى هو الآن فى الستينات من عمره على الأقل.

لم يندهش من قولها، بل أحن رأسه. وكأنه يوافق على ذلك ثم قال بهدوء.

- الآن أخبرينى من أنت، وماذا تريدين؟

سيطرت على إنفعالاتها وقالت بهدوء.

- يبدو أننى قد أسأت التقدير ليس أمامى سوى الإعتذار والإنصراف. هل تسمح لى بأخذ رسومى؟.

مدت يدها نحو الرسوم لكنه تجاهل حركتها تماماً. وقال:

- ليس قبل أن تشرحى الأمر. لقد تحدثنا كثيراً حين إلتقينا فى الطريق، فلماذا هذا التحفظ فى الكلام الآن؟ ثم تذكرى انك جئت لتسألينى إحساناً»

« ليس منك. بل من شخص آخر، ربما هو لم يعد حياً، والداك ربما، أو...»

- عمى. إنه الآن فى غرفته فى الطابق الثانى

- إذن هل أستطيع مقابلته رجاء؟

- كلا بإمكانك مناقشة أى موضوع تودينه معى، وإذا كان الأمر يتعلق بهذه الرسوم، كأن ترغبين بيعها مثلاً فأؤكد لك مقدماً أنك تضيعين وقتك هباء.

- كلا، لا أنوى ذلك إطلاقاً..

قالت وهى تحدق فى أماكن معينة فى الجدار، بدا واضحاً أن رسوماً ما كانت معلقة فيها فيما مضى.

وكان هو يراقبها ثم قال:

- أنت على حق، كانت هناك رسوم معلقة هنا يوماً ما وكانت أكثر قيمة من رسوماتك هذه.

- أعترف أن الرسوم هذه ليست أفضل أعمالها، لكن لها قيمتها الخاصة عندى. أو أن هذا على الأقل ما أعتقده، وإلا لما حضرت إلى هنا.

- لماذا، هل تناسب بيوتاً معينة؟ إذا كان الأمر كذلك فكان الأجدر بك أن تبذلى جهداً أكبر فى رسمها.

- كلا بالطبع. لأن التى رسمتها، وهى أمى، لورا كيلك، قد عاشت هنا. كان هذا البيت بيتها حين كانت فتاة. وتريفينون عائلتها. العائلة الوحيدة لها حتى تزوجت من أبى. أوه. أعرف أنها فقدت الصلة بكم جميعاً «لكن...»

قال مقاطعاً إياها.

- هل هى التى بعثتك؟

إعترضها ببرود. هزت رأسها وابتلعت ريقها قائلة بأسى:

- لقد ماتت منذ سنوات

- أنا آسف

قال بلا مبالاة. وكأنه يؤدى واجباً ثقيلاً.

رفعت مارتينا رأسها وحدقت فى وجهه بغيظ. وقالت بصوت خفيض.

- إننى سعيدة لأنها لا تسمعك الآن، وانها ليست حاضرة لكى تعرف كم هم غير أوفياء أولئك الذين أحبتهم.

- أنت سريعة الحكم على الآخرين. لقد قلت أنها فقدت الصلة بنا. ألم يخطر لك يوماً أن تسألى نفسك، لماذا؟ لست أدرى إلى أى حد حدثتك عن حياتها هنا، ولكنى أقسم أنها لم تخبرك بمدى الخراب الذى تركته هنا حين رحلت.

- أنت تكذب!

- ولماذا الكذب؟ قد يكون ما قلته مر المذاق لكنه الحقيقة

ظلت مارتينا تحدق فيه بدون أن تجد ما تقوله، بعد فترة صمت قصيرة، بدأ هو الكلام ثانية وسألها.

- وماذا عن أبيك، السيد روبرت الأنيق، هل هو يعرف بمجيئك إلى هنا.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة كظم غيظها وحزنها أيضاً وقالت

- لقد مات هو الآخر، وشقيقى جون أيضاً، قتلا فى حادث سيارة قبل أسابيع قليلة. وجميع ممتلكاتنا إنتقلت إلى عمى، وهذه الرسوم هى كل ما بقى»

- يا إلهى، إذن هذا هو الموضوع، قصة والدتك نفسها تتكرر ثانية. قبل خمسة وثلاثين عاماً وجدت أمك هنا ملاذاً لها، واليوم تحاولين أنت الشئ نفسه».

قال هذا بهدوء وهو يهز رأسه. نبرة الإزدراء التى كانت فى صوته، جعلت مارتينا تفقد صبرها تماماً،

وهمت بأن تهجو عليه وتنشب أظافرها فى لحم وجهه الأسود، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- إنك سريع الحكم أيضاً. أعترف بأنى قصدتك باحثة عن ملجأ ولكن ليس لى بالذات بل لهذه الرسوم. فكرت بأنك ستحتفظ بها عندك حتى أعثر على مكان لنفسى وظننت أنك لو لم تفعل هذا من أجلى، فعلى الأقل ستفعله من أجل أمى. وها أنا الآن قد إكتشفت خطأ ظنى

أطلق ضحكة قصيرة وقال.

- إذن هذا هو الإحسان الذى جئت تطلبينه. يؤسفنى أن أقول أننى لا أستطيع تلبيته لك. ما يزال فى هذا البيت أناس ستسبب لهم إثارة زكرى أمك بهذه الصراحة ألماً كبيراً. عمى واحد منهم، وهو مريض منذ سنين، وأفضل أن لا ينزعج بسبب هذا الموضوع.

لم تصدق ما سمعته بآذانها إلا بصعوبة. ترى ما الذى حدث هنا خلال تلك السنوات؟ لا يمكن لشئ أن يشوه ذكريات لورا كيلك عن دومنيك تريفينون.

شعرت فجأة أنها ترتعش. وقالت وهى تخرج صوتها بصعوبة.

- لا أعرف ما الذى جرى ويجرى هنا. ولكن كل ما أستطيعه هو أن أغادر حالاً. وان أعتذر عن تطفلى.

حملت حقيبة الظهر من جانب المقعد وسارت نحو الباب لكنه إبتعد عن الطاولة واعترض طريقها قائلاً بنبرة حازمة

- إنتظرى لحظ، ليس الأمر بهذه السهولة التى تتصورينها ما الذى كنت تبغينه بالضبط من مجيئك إلى هنا؟

- كنت أبغى شيئاً قليلاً. أن أدع هذه الرسوم هنا. هذا كل ما كنت أبغيه. لكن يبدو أن هذا أكثر مما يمكن لغريب أن يطمع فيه.

- ياله من إستعطاف. ولكن لماذا لم تكتبى أو تخابرى مقدماً قبل وصولك؟ ثم هل تتصورين أننى تأثرت برواياتك هذه؟ إنه لم يعد لسؤ الحظ، إيواء المشردين من إهتمامات عائلتنا، وأمك هى سبب ذلك.

- أن تصدق قصتى أو تكذبها، هذا شأنك. ولكن ما قلته هو الحقيقة.

– هل تحـاولين إقناعى بأنه لم يرد ببـالك أبداً، أنه ربما ستجدين مأوى لك هنا؟.

– لا أقدر أن أنكر ذلك.

نظرت مـارتينا إليـه. كـانت نظرته غـريبـة. وكـأن إعـتراضـهـا قـد أدهشـه. وفكرت أن هذا كـان كل مـا يود سماعه منها.

سـارت مـرة أخـرى نحـو البـاب، لكنه لم يتـحـرك من طريقها ومرت من جانبه ومـا أن مدت يدها إلى المقبض، حتى إنفتح الباب فجأة بقوة، فتراجعت إلى الوراء خطوة وهى تطلق صيحة خوف.

– أنا آسف...

قال الشاب الذى دخل وهو يتأمل بنظرة قلق. ثم أضاف:

وهل صـدمك البـاب؟ لم أعـرف أنك تقـفين وراءه. فكرت أن «دوم» وحده فى الغرفة.

– الآنسة ستغادر الآن

قال دومنيك بلهجة باردة

- حقاً؟ هذا مؤسف. هل تعيشين إلى جوارنا؟

سأل الشاب بدون أن يخفى خيبته.

- أعيش فى لندن.

قالت مارتينا وقد داخلها شعور بالخوف والقلق من ترك البيت فى مثل هذه الليلة العاصفة. لو إستطاعت أن تقضى ليلتها هذه تحت هذا السقف، إذن لتدبرت أمرها غداً. لكنها كرهت الفكرة.

ورغبت فعلاً بترك هذا البيت المظلم الواسع، وهذا الرجل الذى يتمتع بإذلالها، ورغبت أن تعرف ما حدث فى هذا البيت حين كانت أمها هنا.

تكلم الشاب ثانية قائلاً.

- حسناً، إذا كان لابد من ذهابك. فكونى حذرة فى قيادتك هناك شجرة واقعة على الطريق. شاهدت جاك وهو يزيحها لكن ربما هناك أشجار أخرى أيضاً.

- لا أملك سيارة. أعتقد أنه ما زالت هناك باصات فى الشارع الرئيسى.

– نعم ولكن عددها قليل، ويتأخر وصولها عادة.

تأملها الشاب طويلاً، ثم نظر إلى وجه دومنيك، بينما كان هذا يستمع إلى الحوار وعلى شفتيه إبتسامة باردة. سأله الشاب.

– ما الذى يجرى هنا يا دوم؟ هل تتركها حقاً تسير كل هذه المسافة حتى الشارع العام فى مثل هذه الليلة وفى البيت ست غرف نوم فارغة؟

فقالت مارتينا

– أوه من فضلك، لابد أن أعود. فعندى اشغالى

– إذن دعينى آخذك بسيارتى

قال بابتسامة حنونة أدخلت الدفء إليها رغم ما يحدث، ثم أضاف:

– أين تسكنين؟ فى القلعة. فى بورت فينور؟

– كلا فى الحقيقة اسكن مع بعض الأصدقاء. ولا داعى لأن تزعج نفسك فى هذا الليل.

– أبداً... أبداً. قل لها يا دوم بأنها لا تسبب لنا أى

إزعاج لماذا تقف هكذا؟ ما الذى حل بك؟ هل ستتركها تخرج من البيت فى مثل هذا الليل؟.

رفع دومنيك تريفينون حاجبيه، وقال ببرود

- الآنسة كيلك قادرة على تدبير أمورها. إنها شابة ناضجة ولا أظن أن هناك داعياً للقلق بشأنها.

- من ... أنسة كيلك؟

- أظن أنك سمعتنى جيداً. والآن اعتقد أن الوقت قد حان لأن أعرفكما ببعضكما. أنسة كيلك. هذا أخى الصغير مارك.

- أظن أن على، بعد أن عرفتنى، ألا أنتظر منك أن تأخذنى بسيارتك.

- أبداً بالعكس.. سآخذك أينما تشائين..

سارت نحو الصالون بدون كلمة إضافية، حاملة حقيبتها ولحق بها مارك ثم سارا بإتجاه الباب الرئيسى.

قالت مارتينا.

- آسفة على كل ما حدث. كنت أجهل ما جرى هنا. حتى

هذا المساء حين عرفت أن هناك صدعاً بين العائلتين.

قال مبتسماً وهو يدير محرك السيارة.

– لابد أنها صدمة غير متوقعة لك

– الحقيقة أننى ما زلت أجهل تماماً ما ارتكبته أمى هنا تحدث شقيقك السيد تريفينون عن البؤس والخراب إنى أجد صعوبة فى تصديق أن كلانا كنا نتحدث عن الشخصية نفسها. كنت مجرد طفلة حين ماتت أمى لكنى لا اتذكر أبداً أنها كانت إنسانة مدمرة بالعكس كانت دافئة، مبدعة، محبوبة من الآخرين»

– ربما كان ذلك أساس البلاء

– ماذا تعنى بذلك؟

– أوه.. لننس الموضوع. فلا فائدة من نبش الماضى. أنا آسف إذا كان دوم قد عاملك بقسوة، وأظن أنه لا يستحق لوماً على ذلك. فالأمر لم يكن سهلاً عليه، وأن وصولك نكأ جراحه من جديد. وبالمناسبة لماذا جئت إلى هنا؟.

– أردت من أخيك أن يحتفظ عنده لى ببعض الرسوم

تأملها بنظرة جانبية حادة. قائلاً

- هل تعنين بعض رسوم والدتك؟

- نعم...

أطلق صفيراً حاداً من بين شفتيه وقال

- ياإلهى. إن هذا حقاً إستفزاز. إنه أشبه بإثارة عش للنحل!

- ولكن لماذا؟.

سألت مارتينا وعلى وجهها إبتسامة حزينة، ثم فجأة إلتفتت إليه ورفعت يدها متوسلة.

- أوه يا إلهى .. إننى آسفة هل تستطيع أن تعود بى إلى البيت؟

- لماذا بحق السماء؟

سألها مارك مستغرباً. وأوقف السيارة. فقالت.

- لقد نسيت الرسوم على مكتب شقيقك

تأملها مارك للحظات ثم قال

– فى الحقيقة لا أنصحك بالعودة ثانية إلى هناك

– لا أحتاج إلى نصيحتك. أنا أيضاً لا أود الإقتراب من ذلك البيت لكنى أريد رسومى.

– إسمعى يا عزيزتى، سأوصلك إلى المكان الذى تقصدينه أما الرسوم فسأجلبها لك صباحاً. ما رأيك؟

هزت مارتينا رأسها غير مقتنعة وقالت.

– أفضل أخذها الآن. لكن يبدو أنه لا خيار لى

– سأجلبها لك غداً صباحاً. هذا أفضل، صدقينى.

قال مارك هذا وحرك السيارة.

– لم أكن أعرف أننى منبوزة بهذا الشكل.

– كلا، لست كذلك. ليس الذنب ذنبك...

خيم الصمت بينهما لفترة، ثم سألها مارك

– هل تعرفين شيئاً عن موضوع الزورق؟

– كلا.. أى زورق؟!

حكاية الزورق

قال مارك مكملاً حديثه.

«حسناً، هل أمك وهى تردد اسم الليدى لوراء

- لا .. إن اسم أمى هو الليدى كيلك، وليس...

- كلا ..كلا، الليدى لورا ليس اسم شخص، وإنما هو اسم زورق، صممه العم تيفولا، فقد كان فى البحرية، وحين عاد منها بعد الحرب أقنع والدى بتأسيس مشروع لصناعة الزورق. وكان إسم النموذج الذى صممه للإنتاج هو الليدى لورا «باسم أمك على أية حال لا أريد إزعاجك بتفاصيل هذا الموضوع»

لم تحدثنى أمى عن أى شئ من هذا القبيل. كانت تحدثنى عن تريفينون وأهله دائماً، كانت ذكرياتها جميعاً سعيدة.

سألها مارك مستغرباً

- أهذا صحيح؟ يبدو انها كانت قادرة على خداع النفس أيضاً.

- كيف..؟ بالله عليك هلا أخبرتنى بما جرى هنا.. وماذا ارتكبت أمى؟

- آسف إذا كانت القصة مؤلمة، لكنك تريدين معرفة الحقيقة حسناً. حين جاءت أمك لورا التى أصبحت فيما بعد لورا كيلك، إلى تريفينون إستطاعت فى وقت قصير أن تفتن الناس جميعاً وتكسب حبهم ومودتهم، ومن ثم إستعمال هذه العاطفة ضدهم. انظرى مدى معرفتى بطبيعتها مع العلم إننى لم أكن قد ولدت بعد حين جاءت هى إلى هنا. لقد تركت تأثيرا كبيراً على كل واحد هنا. وما زلنا نعالج من آثار معاملتها تلك نفسياً ومادياً.

وهمست مارتينا - تحدث نفسها، وهى تحدق فيه بدهشة

- نعم نتحدث عن الشخص نفسه، لقد نشأت هنا ورافقت خطوات تأسيس مشروع الزوارق وحين هربت، تركت العم تيفولا رجلاً محطماً، والمشروع خراباً، هل تعرفين بأنها كانت فى سبيلها إلى الزواج من العم تيفولا؟

- كلا، ظننت أن أبى هو الرجل الوحيد فى حياتها

هز مارك كتفيه قائلاً.

- ربما كان كذلك، لكنها أرادت العم تيفولا فى السلسلة أيضاً لقد أراد أن يكون الزورق «ليدى لورا»

هدية زواجها. يعرف الجميع هنا انهما كانا على أبواب الزواج حين ظهر والدك على مسرح الأحداث. لقد جاء إلى هنا لقضاء عطلته فالتقيا وكان يزور البيت بشكل منتظم ويلقى الترحيب من الجميع ولم يدرك أحد أن هناك شيئاً ما يجرى بينهما. حتى فرا معاً وليس هذا كل ما فى الأمر، فحينما ذهب العم تيفولا إلى المصنع، وجد أن تصميم الزورق «ليدى لورا» قد إختفى من مكتبه

– وتعتقد أن أمى...أوه، أننى لا أصدق.

– والعم تيفولا لم يصدق الأمر فى البداية أيضاً، لكنه إكتشف ذلك بعد فترة قصيرة، حين ذهب إلى معرض الزوارق، وهناك شاهد زورقه نفسه «ليدى لورا». وبالطبع لم يكن يحمل الإسم نفسه إلا أنه كان زورقه. لكنه لم يستطيع أن يثبت بأن هذه نسخة مزورة من زورقه. غير أن مدير المبيعات ضحك كثيراً ونصحه أن يكون أكثر حذراً حين يختار صديقاته.

– يا إلهى... وماذا حدث بعد ذلك؟

– أفلست الشركة، فأضطر أبى إلى بيع أرضه ليسدد

الديون لكن ما هز العم تيفولا، هو إن كل ما جري له إنما كان من إمرأة أحبها جداً، لذلك لا تلقين الترحاب فى هذا البيت.

قالت مارتينا بعد صمت طويل.

– لا أصدق ذلك.. انها لم تكن من هذا النوع، ويستحيل أن تعيش كل هذه السنوات بدون أن يبدر منها شئ يثبت هذا السلوك الذى تتحدث عنه، إلا اذا كنت تعتقد أن والدى كان شريكاً وأنه هو الذى دفعها إلى ما فعلت.

– فى الحقيقة لا نعرف الدور الذى لعبه والدك فى الأمر، لكن ما زاد الطين بلة هو أن والدك كان خاطباً لفتاة فى المنطقة، وكانت الفتاة صديقة العائلة فتصورى الفضيحة التى وقعت فى منطقة صغيرة مثل هذه.

– شعرت مارتينا كأنها تحت وطأة كابوس ثقيل. غير أنها سيطرت على أعصابها المتوترة، وتشبثت بما تؤمن بأن والديها لا يمكن أن يرتكبا مثل هذا الفعل. وقالت بعد تردد.

– لقد فهمت كل ما حدثتنى به يا مارك، وحاولت

جهدى لأن أصدقه، لكن بدون جدوى، لا أستطيع أن أصدق أن المرأة التى أتذكرها، وكذلك والدى، يرتكبان مثل هذه الفعلة. ربماأنهما أحبا بعضهما، والناس عادة ينجرفون من عواطفهم، لكن لا يمكن أن يقدما على بيع أسرار وتصاميم شركة الزوارق، لا أظن ذلك»

قال مارك

– والآن، قلت إنك تبقين مع بعض الأصدقاء. أكان ذلك صحيحاً أم مجرد عزم لإنقاذ ماء الوجه؟

عضت مارتينا على شفتيها وقالت

– عندى مكان أذهب إليه.. سأنزل هنا، وحين أستقر سأتصل بك حتى تبعث لى بالرسوم.

– حسناً. واننى آسف لكل ما حدث

– أنا آسفة أيضاً

قالت ذلك ثم انزلت حقيبتها. وظلت تراقب السيارة حتى اختفت تماماً.

سرت فى جسدها قشعريرة برد وخوف. إنها الآن

وحدها وعليها أن تعثر على بيت بيدى، الفتاة التى إلتقتها فى موقف الباص. علها تؤيها هذه الليلة.

إنتظرت بعض الوقت، وحين يئست من وصول الباص واشتدت برودة الجو، قررت الذهاب إلى بيت صديقتها مشياً على الأقدام فحملت حقيبتها وسارت.

***

الحب بعد صفعة

الفصل الخامس

شعرت مارتينا بأن نفسها أجهدت تماماً فها هى كل المسلمات فى حياتها تنهار وها هى أمها متهمة وكذلك أبيها.. وبينما كانت تسير فى إتجاه الفخار التى تمتلكه بيدى وأخيها حتى سمعت صوت محرك سيارة يأتى من خلفها. ثم ما لبثت السيارة أن صارت بجانبها حتى فوجئت بـ«دومنيك» هو الذى كان يقود السيارة ودعاها للركوب لكنها ورغم دهشتها رفضت بشدة.. لكنه أصر ونزل من السيارة وجذبها جذباً إلى داخل السيارة.. وفى الطريق قال لها ببرود

يبدو ان لعبتك نجحت.. لقد نسيت رسوم أمك على

المكتب وقد رآها عمى وقد أصر على أن يراك.. وبعثنى لأجد فى طلبك..

وهناك قابلت تيفولا .. كان رجلاً فى الستينات من عمره وكان شبه مقعد ودار بينهما هذا الحوار

قالت بهدوء.

– كنت أجهل حقيقة الأمر حين جئت إلى هنا، لم يخبرنى أحد بذلك، اننى آسفة جداً وأرجو أن تعذرنى يا سيد تريفينون قال بصوت خشن متجاهلاً حديثها

– أنت تشبهينها جداً

– نعم كان أبى يقول هذا دائماً.

– الا تتذكرينها جيداً؟

– كنت فى الثامنة حين توفيت. أتذكر بعض الأشياء لا أكثر.

– مثل ماذا؟

صمتت للحظة. ثم قالت وهى تتحدث ببطء وتؤدة

- كانت تبدو سعيدة وتحب الآخرين، حتى حين أصابها المرض وكانت تذكر هذا المكان دائماً- تريفينون وأهله- بسعادة وحنين»

سكتت للحظة ثم هزت رأسها قائلة.

- لكن على ضؤ ما سمعت يبدو ان كلامها كان زيفاً

- كلا...

قال وأغمض عينية، ثم أسند ظهره إلى كرسيه فى حالة استرخاء واردف

- هذا يثبت صحة ظنى فى لورا.

توقف عن كلامه، وساد الصمت بينهما. وظلت مارتينا فى مكانها حائرة ماذا تفعل هل تأخذ رسومها وتترك المكان. أم تنتظر لترى ماذا ستكون نتيجة الأمر؟

فتح عينه أخيراً، وتتطلع إليها ثانية، وقال وهويؤشر إلى كرسى خلفها.

- تفضلى بالجلوس واعذرينى لأننى لم انهض لإستقبالك اننى أعانى من ألم فى ساقى، لا أستطيع أن

أمكث هكذا على ان أتعــود على المشى ثانيـــة. ثم أدار كرسيـه إلى جـهـة أخـرى واشـار بيـده إلى طاولـة عليـهـا مجموعة من الأوراق قائلاً.

– بدأت فـى كـتـابة تاريخ عـائلة تريفـينون وعلى أن انهيـه. لابد ان والدتك أخبـرتك من بعض قصص العـائلة وأساطيرها.

– ليس كثيراً. لقد حدثتنى عن طفولتها وصباها هنا

– لكنها سمتك مـارتينا. كانت تردد دائماً انها لو رزقت بطفلة ستسميها بهذا الإسم. كنت اتخيل ان هذه الطفلة ستكون طفلتى آسف لا أقصد ايذاءك، سـمعت بدون شك بما حدث قبل السنوات الطويلة.

– نعم... سمعت

– لقـد أحـبـبت والدتك منذ اللحظة التى جـاءت إلى هنا، وكـانت بعـد صـبـية، لكنهـا لم تبـادلنـى الحب كـانت تعطف على ، وقلت ان هذا يكفينى

– سيد تريفينون

قالت مارتينا. لكنه قاطعها قائلاً

– تيفولا – سمنى تيفولا، الجميع يدعوننى بهذا الإسم، ماعدا لورا بالطبع كانت دائماً تدعونى دومنيك، كانت تحب هذا الإسم، لكن ما دام ابن أخى يحمل هذا الإسم، فإن استعمالى له يسبب الإرباك.

– نعم

قالت مارتينا بتوتر.

– لم تحبى ابن أخى بالتأكيد

قال مبتسماً وأضاف.

– أعرف ان استقباله لك كان غير ودى، لكن هذا انتهى الآن يا عزيزتى.

– فى الحقيقة جئت هنا لأسألك ان تحتفظ برسوم والدتى ثم علمت بما يفترض ان والدتى قد ارتكبته، وعوملت بتلك المعاملة الوقحة. والآن وقد قابلتك، وعرفت طيبتك وسماحتك قررت ان أهديك هذه الرسوم هز رأسه مبتسماً وقال

- وحسبما سمعت، هذه الرسوم هى كل ما بقى لك من بيتك الا يكون من الأفضل لو انك استمعت إلى ما سأقترحه عليك؟

- ولكنى وقتى قصير على أن الحق بقطار لندن اليوم. واعود لكى أبدأ البحث عن عمل

- تستطيعين ان تمنحينى بعض الوقت. يعرف الله انى انتظرت طويلاً. وقد تمنيت دائماً ان تكون لورا من ستأتى إلى هذه الغرفة.

- لكن ذلك يبدو أكثر مما كنت أطمح اليه.

- أظن انها ستقابل باستنكار فى هذاالبيت

- كلا، ليس الأمر كذلك

- لقد تأخرت لابد ان أذهب

- كلا انتظرى اعترضها بيده، فتراجعت مارتينا إلى مقعدها ثانية، ثم أضاف قائلاً

- آسف يا صغيرتى، أعرف ان الحيرة قد أصابتك. وإنك محقة فى ذلك تستغربين بدون شك لماذا يحقد

الجميع فى هذا البيت على والدتك. لكن آسف على ذلك حقاً. إننى أذكرها دائماً باحترام علما ان الخطأ أرتكب بحقى.

- لا أظن ان والدتى ارتكبت خطأ ما فى أحد، لابد ان هناك إلتباساً فى الأمر

- ليس هناك أى التباس، سرقت شخص ما فى هذه البيت تصاميم الزورق «لورا» وباعها إلى شركة أخرى، هل والدتك من فعلت ذلك لا أعتقد.

- ولكن لماذا لا تحاول كشف هذا الأمر لآخرين؟ قال بعد صمت قصير

- لو كشفت عن براءة لورا، لكان ذلك يعنى أن شخصاً آخر فى هذا البيت قد سرق التصاميم وباعها. خاصة أن الذين كانوا يعرفون بأمر المشروع هم قلة هنا لذا الذين آثرت الصمت، وترك اللوم يقع على عاتق لورا بدلاً من فتح جبهة أخرى من الشكوك والتحقيقات، مع ما يقود إليه هذا الأمر من كوارث. ايقنت ان من كان يحقد على لورا له يد فى هذه الجريمة، وتركت الموضوع ليخمد مع

الزمن. لكن أخى ظل يثيره باستمرار بتحريض من زوجته. وعرفت أن هناك آخرين متورطين فى هذا الموضوع، فسكت عن الأمر. وبحثنا عن كبش فداء لكى نحمله جريمة غيره. فكان ذلك الكبش والدتك. غير انى بعد أن هدأ غضبى أسفت على ذلك جداً وخففت الأمر على نفسى بأنها لن تعرف بالأمر. وحين لم أجبها على رسالتها تيقنت بأنها لن تجازف بالكتابة إلى مرة أخرى.

قاطعته مارتينا وقد تجمدت دموعها فى عينيها

– هذا ظلم.. ظلم..

فقال تيفولا بتأثر

– إذا كنت ترغبين فى الإنتقام منى نيابة عن والدتك، فإنك تستطيعى ذلك ببساطة يا عزيزتى. ان تأخذى، رسومك وتتركى هذا البيت، وبذا تخرجين من حياتى إلى الأبد ولكننى. آمل ألا تفعلى ذلك.

ظلت مارتينا جامدة فى مكانها، وقد خيم صمت عميق لفترة ثم أطلقت تنهيدة قصيرة وقالت

– كلا لن أفعل ذلك. أظن أن ما حدث يكفى

– إذن ستبقين؟

– نعم. لكن لفترة قصيرة، فعلى أن الحق بالقطار

هز تيفولا رأسه بانفعال قائلاً.

– كلا .. كلا لقد أسأت فهمى. أريدك أن تبقى هنا يا صـغـيـرتى ليس عندك مكان تذهبين إليـه. أريدك أن تعيشى هنا وان يكون تريفينون بيتك»

– أواه كلا هذا لا يمكن.

– ولماذا لا؟

– لأسـبـاب عـديدة، منهـا ابن أخـيك يكرهنى، وهو ببساطة لا يريدنى هنا.

– إذا ما رغبت أنا فى شئ، فليس فى مقدور أحد أن يعترض.

– ثم اننى أريد العثور على عمل لإعالة نفسى لا يمكن أن أعيش على الإحسان طوال عمرى.

– من الذى تحدث عن الإحسان؟ ثم هناك عمل لك، فأنا أريد من يساعدنى فى إتمام كتابة به تاريخ تريفينون ولكن ليست لدى خبرة فى السكرتارية.

– تستطيعين الكتابة بدون شك، اليس كذلك؟ هذا كل ما أريده ها انت تشاهدين اننى شبه مشلول ولا أستطيع إنجازه بمفردى.

ثم أضاف.

– لا تظنى يا صغيرتى أن مشروع الكتابة مجرد عذر لبقائك فستجدينى مديراً حازماً. ولكنى أقول أن اليوم من أسعد أيام حياتى. والآن إذهبى وابعنى لى «أنيز» كى أشرح لها ما تم الإتفاق عليه بيننا. وبعد الغداء سنواصل العمل.

كانت فى منتصف الطريق على السلالم حين قالت لنفسها

– يا إلهى ما الذى فعلت؟ هل حقاً سأبقى هنا؟

لكن دومنيك ظهر فجأة من مكتبه، ووقف فى أسفل السلم قائلاً.

– حالما تنتهى يا أنسة مارتينا. سآخذك بسيارتى إلى لينزاس..

قالت بنبرة صارمة وواثقة، وقد إرتسم على وجهها علامات التحدى.

– لا أرغب فى الذهاب

– عفواً ماذا قلت؟

– قلت، أنا باقية. طلب منى عمك ان أعينه فى مشروع كتاب تاريخ تريفينون. إنه بحاجة إلى من يساعده فى الكتابة.

– يا إلهى. لقد نجحت خطتك إذن، أيتها المتآمرة الصغيرة

قال هذا وقد اصفر وجهه من الغضب. لكن مارتينا أجابته باعتداد وثقة.

– لا تنس يا سيد تريفينون. ان أمر اللقاء مع عمك كان من تدبيرك انت.

– ليس من طبعى أن انس اى شئ. حسناً لقد شاهدت

البيت يا انسة مارتينا، وبدون شك ستتعرفين خلال الأسابيع المقبلة على كل أملاك تريفينون وما بقى من مشروع الزوارق ولكن أخشى الا تجدى ما تأخذينه معك حين تتركين هذا المكان..»

– أؤكد لك انى قادرة على ذلك يا سيد دومنيك

حدق فيها للحظة بشراسة وقد اشتد غيظه، قال

– هكذا إذن. إنك حرباء حقاً يا أنسة كيلك، ها انت تحولت خلال دقائق من غريبة فى هذا البيت إلى حبيبة للعجوز تريفينون.

– إنه انسان طيب وانا سعيدة بذلك.

– إنك تستغلين الوحدة التى يعانيها هذا العجوز. ألا تشعرين بالعار من بيع جسدك إلى رجل فى عمر أبيك؟

نزلت مارتينا بقية الدرجات ووقفت أمامه، وبكل ما تملك من قوة رفعت يدها وصفعته على وجهه.

أحست بأنها ارتكبت فعلاً أحمق. وانها فقدت أعصابها مثل طفلة صغيرة، لكنها لم تشعر بأى ندم حين

تذكرت والدتها البريئة وكيف لوث هؤلاء الناس سمعتها الطاهرة.

نظرت إليه ثانية فرأت علامات أصابعها وقد ارتسمت على صفحة وجهه. وقالت بهدؤ.

- أنني آسفة.

- ستندمين على هذا يا مارتينا. ستدفعين ثمن هذا غالياً، وهذا وعد مني لك.

كانت كلماته إنذار حقيقياً. إستدار ومشى خارج الصالة بعد أن اغلق الباب الرئيسي بعنف. سمعت مارتينا بعد برهة قصيرة صوت محرك سيارة، ثم ابتعد تدريجياً.

جلست على السلم، ووضعت وجهها بين راحتيها، وقالت لنفسها

- رباه، ماذا فعلت؟

حدث فجأة
الفصل السادس

انغمست مارتينا فى عملها بحماس، ولم يكن لديها متسع من الوقت لتفكر فى نفسها. وكانت سعيدة بذلك. أما تيفولا تريفينون فلم يكن مبالغاً حين وصف نفسه بأنه مدير حازم فى العمل.

إستهلت مارتينا عملها بكمية كبيرة من الوثائق والكتب والصور الفوتوغرافية التى وضعها أمامها. وأخبرها أيضاً الشطر الأكبر من تاريخ تريفينون واساطيرها إنما هو محفوظ ومتناقل فى العائلة شفاهة. والحقيقة أنها وجدت تاريخ تريفينون ثرياً وضارياً فى القدم. كما أنها

اطلعت على الكثير من القصص والأساطير المتعلقة بهذه العائلة. واخبرها تيفولا أنه ما يزال هناك الكثير من هذه الأساطير في ذهنه، منها أسطورة تتعلق باسم «مارتينا» وحين الحت كى يسردها عليها. أجابها ضاحكاً أنه سيفعل ذلك في الوقت المناسب.

حاولت مارتينا قدر إستطاعتها أن لا تلتقى بدومنيك ومن حسن حظها إنه وأخاه كانا ينهضان مبكرين وحين كانت تنزل إلى الطابق الأرضى يكون الأخوان قد أنتهيا من إفطارهما وغادرا البيت. أما دومنيك نفسه فقد كف عن إعتراضها أو السؤال عنها. وبدا أنه قد نسى وجودها في البيت. وفى المساء حين كانت تنتهى من عملها وتتأكد من أن نيكولا لم يعد يحتاج إليها. كانت تنزل إلى قاعة الجلوس الكبيرة، حيث تكون أنيز قد أشعلت المدفأة، فتجلس هناك قبالتها تقرأ وتستمع إلى الراديو وفى إحدى الأمسيات انضم إليها مارك، فرحبت به كان أكبر منها بسنوات قليلة، وأصغر من أخيه دومنيك كثيراً. تحدثا طويلاً عن تريفينون وعن العائلة لكن دومنيك لم يكن يقترب من قاعة الجلوس في الأمسيات بل كان

يقضى أوقاته فى مكتبه. وتساءلت مارتينا. أهذه هى عادته دائماً أم أنه يتجنب قاعة الجلوس منذ جاءت هى إلى البيت. كى لا يلتقى بها؟ لكنها حسمت الأمر بأن هذا ليس من شأنها ما دام هو لا يقلق راحتها.

ذهبت فى صباح أحد الأيام إلى غرفة تيفولا، بعد الإفطار، لتبدأ عملها. لكنه أخبرها أنه لا يحتاج اليوم. لأن الطبيب قادم بعد قليل لإجراء الفحوص له.

نظر اليها وقال.

– أنت متعبة من العمل. اذهبى اليوم فى نزهة قصيرة، خاصة أن الجو صحو، ولا أثر للمطر.

وحين غادرت الغرفة، صاح من وراءها.

– أبقى بعيدة عن البحر، لأن الأمواج قوية وهائجة

ذهبت إلى غرفتها واخذت دفتراً للرسم وعلبة أقلام وكانت انيز هناك ترتب الغرفة، فقالت لها.

– ما دمت تذهبين إلى الخارج، اجلبى معك عدد من البيض إذا ما مررت قريباً من حقل السيدة هاريك

غمرت مارتينا سعادة كبيرة ومفاجئة حين أصبحت خارج البيت، وكأنها تلميذة صغيرة أطلقوها من المدرسة فجأة.

ولم يخامرها هذا الشعور لأنها كانت تكره العمل مع تيفولا بل العكس، كانت سعيدة معه. لكنها رأت نفسها وحدها لأول مرة منذ ان جاءت إلى تريفينون، وفى هذا سعادة كبرى لها.

إتخذت طريقها إلى ناحية البحر مسترشدة بهدير الأمواج، وكانت الرياح قوية، تنشر شعرها على وجهها، وحين وصلت إلى المرتفعات الصخرية المطلة على البحر، شاهدت الأمواج الهائجة وهى تصطدم بالصخور محدثة هديراً عنيفاً وتارة كمية هائلة من الرذاذ الأبيض

تأملت البحر طويلاً، وبالرغم من سعادتها بذلك، إلا انها أحست بخيبة أمل حين لم تلمح أى أثر للمحاريات، تلك الحيوانات البحرية الرمادية اللون. لكنها تذكرت ان هذه الحيوانات ستعود إلى هنا مع مطلع الام القادم. لكن هل ستكون هى نفسها فى ذلك الوقت هنا؟

مشت طويلاً فوق تلك الصخور العالية وهى تتأمل

فيما حوليها. وبالرغم من انها عاشت سنوات طويلة فى الريف إلا انها أحست هنا برهبة وخوف يسريان إلى قلبها، ومن الوحدة تحت هذه السماء الشاسعة، والصخور والبحر وهدير الأمواج. وجلست بجانب صخرة كبيرة تستطيع الإحتماء بها من الريح، وهيأت دفترها وأقلامها وبدأت فى تخطيط بيوت فينور وبقايا المنجم. لكن الريح الشديدة كانت تعصف بها وتوشك أن تمزق أوراق الدفتر، وهى تفكر إلى أين ستنتهى حياتها وإلى متى ستبقى فى تريفينون بعد فترة قصيرة انتابها الضجر. فمزقت الورقة والقتها للريح ونهضت لتذهب إلى حقل السيدة هاريك لتأخذ البيض وتعود إلى البيت. لم تكن تعرف الطريق إلى الحقل، فقررت الوصول إلى الطريق الرئيسى أولاً. وبينما هى تسير سمعت صوت محرك سيارة من خلفها فانسحبت إلى جانب الطريق، ولكن المنبه لم يكف بالرغم من وجود مكان كاف لعبور السيارة تماماً. كانت سيارة مارك فهتف بها وهو يلوح لها بيده

– – أهلاً ... هل استمتعت بوقتك؟ هيا ... سوصلك إلى حيث تريدين.

بعد تردد قصير أجابته، وهى تفتح باب السيارة وتصعد

- إننى ذاهبة إلى حقل السيدة هاريك لأخذ كمية من البيض طلبتها انيز.

- حسناً، سآخذك إلى هناك

بعد دقائق من الصمت سألها مارك ثانية وهو يضحك

- كيف يسير العمل فى مشروع الكتاب؟

- ببطء .. ما زال أمامنا الكثير من العمل

- أوه، هذا مؤسف

أجابته بعد أن تأملته طويلاً، وهى تبتسم

- لماذا؟ لأنه يعنى أننى سأبقى فى بيتكم مدة أطول؟

- يا إلهى. كلا لا أعنى هذا.

- ماذا تعنى إذن؟

- أعنى أن عمى رجل مريض، ولا نريد أن يرهق نفسه كثيراً حتى لا تنتكس صحته، بالرغم من أنه يشعر بتحسن كبير هذه الأيام.

ونحن نشكرك على ذلك

– نحن؟

سألت بدهشة وهى ما تزال تبتسم

– بالطبع حتى دومنيك. كان إعتراضه على بقائك فى البداية هو لخشيته من ان تسبب رؤيته لك صدمة أخرى له لكن النتيجة جاءت عكس ذلك تماماً.

– لكن دومنيك لم يغير من موقفه حتى الآن

– تعرفين أن احزان واحقاد كل تلك السنين لا يمكن أن تتلاشى خلال أيام

لم تجبه مارتينا. وظل هو أيضاً صامتاً حتى وصلا إلى مفترق طريق. فأوقف السيارة واشار إلى طريق الحقل قائلاً.

– ذاك هو حقل السيدة هاريك، اسألى السيدة حتى تدلك عليه.

أخذت مارتينا البيض، وحين استفسرت السيدة هاريك عن سبب وجودها المفاجئ فى تريفينون اعتذرت

لكونهـا يجب أن تسـرع فى العـودة لأن انيـز تنتظرها ووّدعـتـهـا بعـد أن شـرحت لهـا الطريق المخـتـصـر إلى تريفينون. وقريباً من البيت تسلقت حائطاً صغيراً ودخلت إلى باحـة كبيـرة كان عليـهـا أن تجتـاز قبل الوصـول إلى البيت. كانت هذه الباحة جزء من بناء قديم ملحق بالبيت الكبيـر يحوى مـخـزن الغـلال وأدوات الفـلاحـة التى تعود إلى انيـزة واصطبـلات كانت تستعمل أيام كانت تريفينون مـزدهرة. هناك سمعت صوت كلب يقترب منهـا، فانتابها الخـوف، رغم انهـا كـانت تحب الكلاب منذ الصـغـر، وهرعت إلى البنـاية القـديمة. لكن الكلب تبعهـا إلى هناك ووجدت نفـسهـا فـى غـرفـة واسـعـة ومظلمـة بعض الشئ، فيها معـاول وفؤوس وكميـات كبيـرة من الحطب والقش. كمـا شـاهدت سلمـاً خـشـبيـاً يقـود إلى مـخـزن علوى. فتسلقت السلم حتى تكون فى أمـان أكثـر هنـاك. دخل الكلب وراءهـا وظل عند أسفل السلم ينبح ويقفز، محاولاً الوصـول إليـهـا. كـان أحد الكلبين اللذين أعترضـاهـا فى الليلة التى جاءت فيها إلى تريفينون غيـر أنها منذ ذلك اليوم لم تشاهدهمـا. وحين سـألت انيـز عنهمـا أجابتهـا

انهما غالباً ما يمكثان خارج البيت فى البناية الملحقة.

ظلت مارتينا محبوسة فى المخزن العلوى فترة طويلة من الزمن وقد جمدت من الخوف، لا تدرى ماذا تفعل ولا كيف تبعد الكلب عنها. فكرت انه ربما دومنيك هو الذى علم الكلب على معاداتها، لكنها سرعان ما سخرت من أوهامها.

هدأ الكلب، حين سمع صوت أقدام قادمة فى الباحة فهتفت مارتينا من مكانها متوسلة، قبل أن يبتعد العابر من الغرفة

– من فضلك، هل تبعد هذا الكلب عنى؟ إننى خائفة

توقف العابر للحظة، ثم جاء صوت أقدامه وهو يقترب من الغرفة. ظن أنه زاك يقوم بعمله هنا. لكن سرعان ما التقت عيناها بعينى دومنيك حين دخل إلى الغرفة صاح.

– يا إلهى. ماذا تفعلين هنا؟

– هربت من كلبك

– انت مجنونة! الا تعرفين أنه لا يؤذيك

- إبعده عن السلم، حتى أنزل...

- هيا .. هيا انزلى، لا تخاف

قعد الكلب عند ساقى دومنيك، وراح يتمسح به محركاً ذيله أما مارتينا فقد بدأت فى النزول. غير أن قدمها أنزلقت فى منتصف السلم، فأطلقت صرخة قوية وافلتت عليه البيض من يدها. لكن يداً قوية امسكتها من خاصرتها وانزلتها على الأرض. كانت ترتعش من الخوف والإنفعال وقد إمتلأت عيناها بالدموع.

قال دومنيك لها ساخراً.

- ماذا كنت تفعلين؟ تستكشفين خفايا تيفينون؟

حدقت مارتينا فى وجهه بغضب، تمنت لو ان علبة البيض ما تزال فى يدها، لتضرب بها وجهه. ثم أجابته بصوت مرتعش.

- كلا .. كنت أجلب البيض لأنيز من حقل السيدة هاريك

إنتبهت فجأة أنه ما يزال يمسكها من خاصرتها. فأحست بالحرارة تصعد إلى وجهها. وقالت وهى تبتسم

من بين دموعها.

– إن كلبك يكرهنى

– ما زلت غريبة عليه، سيعتاد عليك بمرور الزمن

– انت تكرهنى أيضاً.. والكلب يحس بذلك

– أهكذا حقاً؟

قال مبتسماً وسحبها نحوه واقترب بوجهه من وجهها فأصابها الذعر وحاولت ان تفلت من بين يديه، لكن بدون جدوى. وقالت وهى ترتجف بعد أن تخلص منها.

– ما كنت أظن أن هناك ذئاباً مع الكلاب فى هذا البيت.

– ألا تتذكرين انك تمنيت. أن يقع ملك كورنوول فى هواك؟ ها هى أمنيتك تتحقق.

– لكنى أكرهك، ولا أود رؤيتك.

تبسم دومنيك وقال وهو يتأمل وجهها مبتسماً

– أظن انك تعلمت من تاريخ عائلتنا، انه إذا ما أحببنا شخصاً نظل أوفياء له.

- من الأفضل أن توفر عواطفك لأمرأة أخرى

خيم الصمت عليهما، وكانا لا يزالان يقفان فى مكانهما بدون حركة. وحين طال الصمت سألت نفسها. لماذا امكث معه فى هذه الغرفة المظلمة؟

- من فضلك لو شرحت لأنيز ما حل بالبيض

- بل سأذهب إلى القل واجلب غيره

- شكراً

أجابته وتركت الغرفة. كان الجو بارداً فى الخارج فرفعت ياقة سترتها حتى تغطى رقبتها اتقاء للريح الباردة. وأحست بحقيقة مرة تستقر فى أعماقها شيئاً فشيئاً، هى أنه ليس هناك شئ يبقيها فى تريفينون سوى حب دومنيك!.

حجر فى بركة راكدة

كان الجميع صامتين أثناء الغداء. وبدا تيفولا مشغول البال. أما مارتينا فقد أجبرت نفسها على تناول القليل من الطعام. وكانت منشغلة الذهن هى الأخرى، تستعيد ما حدث لها فى الصباح مع دومنيك فى تلك الغرفة المظلمة. وشعرت انها بحاجة شديدة لأن تفكر أكثر فيما حدث، وفى الشعور الذى أنتابها نحوه. أختطفت نظرة إلى تيفولا، كان متعباً ومنهمك القوى. وبدا أكبر مما كانت تراه دائماً، وكأنه شاخ فجأة ربما أنبأه الطبيب أن نتائج الفحوصات غير مشجعة. لذا فإنها ذهلت حين أعلن بشكل مفاجئ عن نيته فى القيام بجولة، بعد الظهر. فسألته مندهشة.

– جولة! أين؟

– بورت فينور

لكن انيز تدخلت قائلة

– لنر ماذا سيقول دومنيك. أظن أن صحتك لم تتحسن بعد حتى تبدأ فى الركض.

ضرب تيفولا الأرض بعصاه. وصاح بها

– عليك اللعنة ايتها المرأة. من قال أننى ساركض؟ هل تعتقدين أنى سأبقى حبيس هذا البيت حتى الموت؟

ثم سكت وقد بدا عليه الأعياء التام. واردف قائلاً بعد لحظات.

– لم اتخل بعد عن حوض الزوارق، ولم اتنازل عنه هدأته انيز قائلة. وهى تغادر قاعة الطعام حاملة الأطباق للمطبخ.

– لا أقصد ذلك. ما أعنيه هو ان تأخذ الأمور على مهل قالت له مارتينا، وقد اصبحا وحدهما.

– إنها على حق

– لتذهب إلى الجحيم. لابد أن أذهب إلى الحوض. هناك شئ أريد جلبه

– ألا يقدر أحد ابناء أخيك أن يجلبه لك؟

– يقدرون بالطبع، إذا ما طلبته منهم لكنى أريد جلبه بنفسى لأسباب عديدة.

ثم تأمل مارتينا بعض الوقت. وقال لها.

– تستطيعين أنت جلبه لى: إنه ملف أخضر يحمل رقم ب.و/٣٣ فى خزانة الملفات فى مكتب دومنيك.

أجابته مارتينا بدهشة

– لا أستطيع. لنفرض أن أحداً رآنى وأنا ابحث فى خزانة الملفات؟

– تخبرينه بالحقيقة. انك تأخذين الملف بأمر منى

إنتظر جوابها بعض الوقت، وحين ظلت صامتة قال.

– إذا لم تذهبى، فلا خيار لى سوى الذهاب بنفسى

– كلا، لن تتحمل الذهاب إلى هناك. سأذهب أنا

قالت مارتينا وهى تضع يدها على يده. محدقة فيه بحنان ثم سألته.

كيف سأصل إلى بورت فينور؟

– سيأخذك مارك. فهو يذهب إلى هناك عادة فى الساعة الثانية بعد ظهر كل يوم، قولى له انك ذاهبة لشراء بعض الحاجيات.

تناولت سترتها وحقيبتها من غرفتها، ونزلت إلى الصالة كان مارك واقفاً أمام الباب يتحدث مع زاك ويقدم له بعض الإرشادات. وحين لمحها سألها بدهشة.

– مرحباً مارتينا، إلى أين؟

– إلى بورت فينور، لشراء بعض الحاجيات، عرفت أنك ذاهب إلى هناك، هل تأخذنى معك؟

– بالتأكيد سأخذك

قال لها مارك فى السيارة.

– لماذا لم تخبرينى منذ الصباح؟ لو فعلت لكنا تناولنا الغداء معاً هناك.

إبتسمت مارتينا، وتأملته طويلاً. كان وسيماً ونشطاً وعلى قدر كبير من المرح والحيوية. وقالت لنفسها. لو كنت فى وضع آخر لعشت معه قصة حب رومانسية ممتعة.

– الآن فقط قررت الذهاب إلى هناك

إستمتعت كثيراً بأحاديثه ومزاحه، حتى وصلا إلى حوض الزوارق، فأوقف السيارة وقال لها.

– الكثير من المحلات مقفلة الآن، فى هذا الموسم من السنة، لكن هناك محل مفتوح لبيع الصحف والمجلات، وآخر صيدلية. ثم مقهى جميل يبيعون فيه أيضاً التحف والهدايا حين تنتهين من شراء حاجياتك، تعالى إلى حوض الزوارق

شكرته مارتينا، وراقبته وهو يبتعد بسيارته، ثم سارت فى خطوات بطيئة وهى تتأمل واجهات المحلات، حتى ينقضى بعض الوقت قبل أن تعود إلى حوض الزوارق وفكرت أنه كان بإمكانها أن تخبر مارك ببساطة حول الملف، وانها جاءت لتأخذه بناء على طلب تيفولا، لكن

تيفولا أراد أن يتم الأمر سراً لسبب ما، وعليها أن تنفذ رغبة الرجل المريض.

عثرت على المقهى الذى تحدث عنه مارك، ودخلت إليه. كان صغيراً، ليس فيه سوى بضع موائد، ولم يكن فيه رواد، فجلست إلى احدى الموائد تنتظر مجئ الخادم ومن خلف الستارة التى كانت تحجب غرفة داخلية خمنت مارتينا أنها المطبخ، تناهت إليها أصوات نساء وأطباق تغسل. ولم يطل إنتظارها. وبينما هى تتأمل قائمة الطعام، انزاحت الستارة، وظهرت فتاة فى رداء طويل، عرفتها مارتينا حالاً.

– مرحباً.

قالت بيدى بابتسامة عريضة، وهى تحمل سلة فيها مجموعة من الخزفيات.

واردفت.

– جئت بهذه الخزفيات علنى أبيع منها شيئاً للمقهى

– أوه، أنا سعييدة برؤيتك يا بيدى. اتشربين القهوة معى؟

– بالطبع أكون سعيدة.

قالت بيدى، ووضعت السلة جانباً. وجلست على المقعد المقابل، ثم أضافت.

– أخبرت أخى عنك، وكنا نتساءل هل ما زلت فى تريفينون؟

– مازلت، والحقيقة اننى اشتغل هناك.

– تشتغلين؟ لدومنيك تريفينون؟

– مع عمه. فهو يكتب تاريخ العائلة، وانا أساعده

– رائع. وكيف هو مارك تريفينون؟

– جيد. أنت تعرفينه؟

– كنت أعرفه. لكن ذلك انتهى منذ زمن. لم يرض أخوه الكبير عن علاقتنا. اعتبرنى غير ملائمة لعائلة تريفينون؟

سكتت بيدى وظلت تحدق فى قائمة الطعام ثم أضافت

– هناك فتاة أخرى الآن، تبدو ملائمة لهم.

– ماذا تقصدين؟

– تقولين أنك فى تريفينون منذ أسبوع. ألم تشاهديها بعد؟

– الفتاة الطويلة ذات الشعر الأسود؟

– بالضبط إنها كارين إنجلس

– أجل لقد شاهدتها. سيتزوجها؟

– ربما سيتزوجها أحد الأخوين. خاصة أنها ثرية، وعمتها ترغب فى ذلك، بعد أن فشلت هى فى الزواج من تيفولا؟

– وكيف عرفت ذلك؟

– مارك أخبرنى

– هكذا إذن..

قالت مارتينا.. وسادت فترة صمت بينهما. أخذتا خلالها ترتشفان قهوتهما. ثم قالت بيدى.

– ساكون سعيدة لو جئت للغداء معنا يوماً فى سانت اينا

– ساكون سعيدة أيضاً

– إذن سنكون على اتصال

قالت بيدى. وجرعت ما تبقى من قهوتها. ثم نهضت

وحملت سلتها، وودعت مارتينا.

- أتريدين أن أبلغ مارك أية رسالة؟

- كلا. لا أرغب فى ذلك فى الوقت الحاضر

أجابتها بيدى مبتسمة، ثم غادرت المقهى

إنتهت مارتينا من قهوتها. نهضت وحملت. وتركت المقهى. اشترت خارطة للمنطقة من المكتبة الصغيرة ثم ذهبت إلى الصيدلية واشترت زجاجة «شامبو» وزجاجة عطر.

حين وصلت إلى حوض الزوارق، لمحت سهماً يشير باتجاه المكاتب. فسارت فى ذلك الإتجاه على ممر ضيق ومرصوف بشكل جيد. كانت هنالك زوارق وقوارب صيد عديدة ومختلفة. وقفت أمام الباب الأول، وكان عليه عبارة «الإستعلامات» ترددت فى الدخول للحظات، ثم دفعت الباب. كانت عبارة عن غرفة ضيقة فيها فتاتان تطبعان على الآلة الكاتبة.

- إننى أبحث عن السيد مارك تريفينون

- فهمت إحدى الفتاتين، وتقدمت منها قائلة.

– الجميع فى إجتماع الآن. أهو ينتظرك؟ أتودين أن تنتظرى؟

ترددت مارتينا فى الجواب بعض الشئ، ثم أومأت بالإيجاب.

– حسناً، إذن تفضلى. قالت الفتاة، وقادتها إلى مكتب مارك

لاحظت مارتينا ان كلتا الفتاتين تتأملانها بفضول. ربما تحسبانها عشيقة جديدة لمارك. ومن جانبها تساءلت.

هل ياترى إستطاع مارك الوسيم والمرح أن يقاوم إغراء هاتين السكرتيرتين الفاتنتين؟

كان مكتب مارك صغير جداً. ليس فيه غير طاولة للكتابة وبضعة مقاعد. جلست على أحد المقاعد وبدأت تستعيد أنفاسها، وتتذكر فى الوقت نفسه، إرشادات تيفولا. وحين تأكدت من أن السكرتيرة عادت إلى مكتبها. فكرت ان هذا هو الوقت الأنسب لأخذ الملف خاصة أن الجميع فى الإجتماع الآن. نهضت بهدؤ وفتحت الباب، وسارت وهى تتطلع إلى أبواب الغرف، حتى لاحظت عبارة «مكتب دومنيك تريفينون» ففتحت الباب ودخلت، ومثلما أخبرها تيفولا كانت هنالك خزانة واحدة للملفات،

فتحت الدرج الأول، وكانت فيه مجموعة من الملفات الخضراء غير أن أياً منها لم يكن يحمل العنوان الذى ذكره تيفولا ثم بحثت فى الدرج الثانى، ولم تعثر عليه أيضاً. وفتحت الدرج الثالث، وهى جاثية على ركبتها، حين سمعته يقول من الخلف.

- هل تبحثين عن شئ ما؟

لم تصادفها فى حياتها لحظة كتلك. تمنت فيها لو انها تموت حالاً. أو ان تنشق الأرض وتبتلعها فى اللحظة نفسها. نهضت من مكانها والتفتت إلى الباب. كان هو هناك. يقف أمام الباب، واضعاً يديه فى جيبه. يتطلع إليها بهدوء.

إجابت مارتينا بإرتباك بدون أن تتجرأ على النظر فى وجهه.

- نعم، لكنى لم أجده

قال دومنيك وهو ما زال يحدق فيها بوجه عابس.

- ربما أستطيع مساعدتك.

ثم سار إلى الخزانة وأخرج مجموعة مفاتيح من جيبه، وفتح درجاً سفلياً، وسحب منه ملفاً أخضر اللون، وقدمه إليها قائلاً ونبرة غضب فى صوته.

– تفضلى هذا ما تبحثين عنه

أرادت مارتينا أن توضح الأمر له، وتبرر سلوكها هذا. فقالت،

– أظن أنك أسأت تفسير سلوكى هذا

أجابها ساخراً.

– بالعكس، ياليدى مارتينا. الحقيقة اننى كنت أتوقعه منذ مجيئك إلى تريفينون.

خطت خطوتين إلى الأمام، واخذت الملف من يده ودسته فى حقيبتها بيد مرتجفة.

– حسناً، أظن أن من الأفضل أن تتركى هذا المكان قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.

قال دومنيك غاضباً وهو يؤشر لها بالخروج. وبينما هو يتكلم جاء صوت إنفتاح أحد الأبواب مختلطاً بوقع أقدام

آتيـة وأناس يتحـدثون فاسـتدار باتجـاه الممر وسـد البـاب بجسده وكأنه يحاول إخفاء وجود مارتينا عن الآخرين.

سمعت مارتينا صوت مارك فى الممر وهو يسأل

– هل شـاهدت مـارتينا يا دوم؟ أخبـرتنى السكرتيـرة أنها هنا لكنها إختفت.

– إنها هنا فى الغرفة.

دخل مارك إلى الغرفة، وهتف حالما شاهدها

– مرحباً مارتينا، هل تأخرت عليك

– أبداً. هل نغادر؟ لا أستطيع أن أتأخر كثيراً

– بالتأكيد، هيا.

قال مارك وهو يمد يده إليها. ثم سألها.

– كيف وجدت بورت فينور؟ إنها شبه مهجورة فى هذا الوقت من السنة.

قبل أن تجيبه مـارتينا دخلت إلى المكتب إمـرأة أخرى. كـانت قصـيـرة ونحيفـة، ترتدى نوياً وردياً من الصـوف، وقـد سـرحت شـعـرها إلى الخلف بعنـاية، لم تشـاهدها

مارتينا من قبل، لكنها حدست انها بابارة إنجلس، وهى الأخرى عرفتها. إذ انها حالما وقع نظرها عليها، ضيقت ما بين عينيها الزرقاوين، وتأملتها طويلاً وقد احمرت وجنتيها ثم قالت.

– صديقة جديدة لمارك؟

وقبل أن يتكلم مارك أجابها دومنيك.

– كلا يا بريارة. دعينى أعرفكما ببعضكما. هذه مارتينا كيلك صديقة تيفولا الشابة، والتى ستقضى معنا بعض الوقت مارتينا، هذه باربارة إنجلس سكرتيرة الشركة، وصديقة مقربة جداً.

كانت يد بريارة باردة وهى تصافح مارتينا قائلة.

– أوه يا عزيزتى، ياللسعادة! أدخل هذه الغرفة فأجد لورا كيلك واقفة فيها بعد كل هذه السنين. إنها مفاجأة بصراحة.. الشعر.. والبنية..

ثم إستدارت إلى الرجلين وقالت وهى تبتسم.

– بالله عليكما لا تقفا هكذا مرتبكين. لقد حدث ما حدث قبل سنين. والتفتت إلى مارتينا قائلة بحماس.

– أعرف والدتك جيداً، لكننا انقطعنا عن بعضنا طوال هذه الأعوام. كيف هى الآن؟

– ماتت وانا فى التاسعة من عمرى، أما والدى وشقيقى فقد قتلا فى حادث سيارة فى بداية هذا العام.

– وطبيعى جداً. انك جئت إلى تريفينون باحثة عن ملجأ.

قالت ذلك وكان صوتها دافئاً وشفوقاً. ثم ضحكت ضحكة خفيفة وهى تقول.

– ياللسماء. كيف يعيد التاريخ نفسه!

واحست مارتينا بحرارة شديدة فى الغرفة. وان ياقة قميصها الضيقة تكاد تخنقها. التفتت إلى مارك وقالت بنبرة متوسلة.

– مارك لابد أن أعود إلى البيت

قالت بريارة بلطف.

– حسناً، سنتحدث طويلاً هذا المساء. هل أخبرك تيفولا بأننا سنجرى مباراتنا الإسبوعية فى الشطرنج؟ لم

يخبرك؟ يبدو أنه يريد أن يفاجئك بذلك. وسنرتب قريباً أيضاً حفلة صغيرة للترحيب بعودة ابنة لورا إلى البيت.

ردت مارتينا.

– سيكون ذلك جميلاً، وسأكون شاكرة.

إستعادت مارتينا هدوء أعصابها حين أصبحت خارج المكتب وشعرت بحيويتها وهى تسير إلى جانب مارك الذى تأبط زراعها. وخلفها كانت باربارة إنجلس تتحدث مع دومنيك وتضحك، خمنت مارتينا انها موضوع حديثهما بدون شك. قالت لمارك:

– قابلت اليوم صديقة لك، تدعى بيدى، تملك مخزناً للفخاريات فى سانت إينا؟

– أوه، حقاً؟ كيف هى الآن؟

– كانت تبدو سعيدة

أجابته مارتينا، ثم سكتت للحظات، وقالت ثانية.

– هل سببت لك إرتباكاً فى عملك؟ اخبرونى فى

الإستعلامات انك كنت فى إجتماع.

- أبداً كان مجرد إجتماع روتينى

فتح لها باب السيارة فصعدت، ثم صعد هو الآخر، التفتت مارتينا إلى الوراء، فلمحت دومنيك واقفاً أمام المكتب وإلى جانبه باربارة، لوح لها بيده مودعاً، فردت عليه بإشارة مماثلة، ثم إستوت فى جلستها.

- إهدأى، يكفى. إنفعالاً.

قال لها تيفولا فى البيت. لكن مارتينا انفجرت فيه صائحة

- أهدأ .. كيف؟ لم أر فى حياتى إذلالاً مثل هذا. لقد ضبطنى فى مكتبه وأنا ابحث فى الملفات. ولم يعطنى أية فرصة حتى أوضح له الأمر.

قال تيفولا وهو يحاول تهدئتها.

- صدقينى أن الأمر ليس بهذه الأهمية. سأشرحه له بنفسى لا تهتمى.

- كيف لا أهتم؟ أما كان من الأفضل لو طلبت من

غيرى القيام بهذا العمل. أم انك اردت أن تحشرنى فى هذا الموقف المحرج فقط.

- كلا يا صغيرتى. دعينى أوضح لك الأمر. لقد كلفتك لإنك ستكونين الحجر الذى سألقيه فى بركة ماء راكدة، حتى أحركها.

- ماذا تعنى بكلامك هذا؟

- دومنيك سيخبر باربارة إنجلس بالأمر. وباربارة ستثير هذا الموضوع علناً بدون شك. وانذاك نستطيع كشف الحقائق.

إتسعت عينا مارتينا من الدهشة، وهى تحدق فى وجهه باستغراب وقالت.

- أتعنى أن بربارة هى التى سرقت التصاميم وباعتها؟

أسند تيفولا ظهره إلى الكرسى، والقى برأسه إلى الوراء واغمض عينيه، وقد بدا متعباً. ثم قال بصوت أشبه بالهمس.

- هذا ما أعتقده

– ولماذا لم تكاشفها بالأمر طيلة هذه السنين؟

– لا برهان لدى لكى أثبت ذلك

– ولكن لماذا أقدمت باربارة على تلك الفعلة؟ ثم لماذا اتهمت أمى بذلك؟

– لأنها كانت تغار منها. كانت لورا محبوبة أكثر منها. بالإضافة إلى ذلك كانت باربارة تحب والدك، وتأمل الزواج منه.

أخفت مارتينا وجهها بين راحتيها، وهتفت.

– أوه يا إلهى. هكذا إذن..

– نعم هكذا..

– وكيف عرفت أن باربارة هى التى فعلت ذلك؟

– من أشياء كثيرة. منها أنها كانت متلهفة بشكل غير طبيعى على التقرب منا ومساعدتنا وقد مولتنا بالمال لادامة المشروع حين ساءت أمورنا. بالإضافة إلى ما قاله الرجل لى فى معرض الزوارق، أن أكون أكثر حذراً فى إختيار صديقاتى.

– ولماذا تركت أمى المسكينة تتحمل تبعات جريمة، هى بريئة منها؟

– لم يكن الأمر بالسهولة التى تتصورينها. تعرفين اننى عطفت حتى على باربارة وفهمت جيداً وضعها النفسى آنذاك والذى دفعها إلى فعل ما فعلت. هناك نقطة أخرى أريد توضيحها لك، بعد تلك الحادثة أصبحنا أنا وباربارة قريبين جداً من بعضنا، وكنت آمل أنه مع تزايد إقترابنا.

ستعترف بما فعلت بفعل عاطفتها نحوى. لكن مع الأسف طال إنتظارى حتى الآن.

– وهل تبادلها العاطفة يا تيفولا؟

– كيف تنمو العاطفة فى جو تنعدم فيه الثقة؟

تجمعت الدموع فى مآقى مارتينا. وقالت بحسرة

– يالها من خسارة حياة، بل حياتين!

إبتسم تيفولا وهو يتأمل وجه مارتينا الحزين

– ولكنى لم أمت بعد، ولا باربارة أيضاً. ما زلنا

مستمرين فى لعبتنا والحقيقة انها تلعب بذكاء، لكنى واثق انها ستخسر هذه المرة.

ثم رفع الملف من فوق المكتب وفتحه قائلاً وهو يقربه من وجه مارتينا.

- أما فى الوقت الحاضر، فسأجدد علاقتى بحبى الآخر

تأملت مارتينا الرسوم والأرقام على صفحة الملف. ثم سألت

- زورق آخر؟

أومأ تيفولا بالإيجاب قائلاً.

- نعم .. زورق آخر لكن هذا سيعبر المحيطات، وسيتحدث الناس عنه كما يتحدثون عن البواخر العظيمة وسأسميه «ليدى مارتينا»

- أوه!

هتفت مارتينا وهى تضغط براحتيها على خديها الملتهبتين ثم قالت.

- ولكنى هكذا دعانى دومنيك حين وجدنى فى مكتبه. ليدى مارتينا!

أطلق تيفولا ضحكة قصيرة وقال

– هل دعاك هكذا؟ ان ابن أخى ليس غبياً. إذن لقد عرف أننى سأسترد هذا الملف.

– ولماذا سميته مارتينا؟ اعرف ان هذا اسم شائع هنا؟ ولكن..

– هكذا إخترت هذا الإسم. ربما لاشجع نفسى على العمل

– لا غرابة فى ذلك إطلاقاً

قال دومنيك وهو واقف فى باب الغرفة. تراجعت مارتينا فجأة واسندت ظهرها إلى الكرسى، كرد فعل ظهوره المفاجئ. تقدم دومنيك منهما ورفع حاجبيه مندهشاً وهو ينظر إلى عمه وقال.

ما هذا يا تيفولا؟ قصة أخرى من قصص العائلة؟

– بل إنها قصة الماضى والحاضر والمستقبل كما آمل

نظر دومنيك إلى الملف وقال ساخراً

– تكلف اناساً غرباء لإنجاز مهماتك. لماذا كل هذا الحذر – أجابه تيفولا وهو يهز كتفه

– لدى أسبابى بدون شك

– حسناً. لا أريد أن أسألك عن هذه الأسباب. ولكنك حشرت الآنسة كيلك فى موقف محرج ظهر هذا اليوم.

– إنها سامحتنى، وأظن أنها ستسامحك أيضاً مع الأيام. ولكن لماذا هذه الشكليات؟ أن اسمها هو مارتينا الا تتذكر ذلك؟

– من حسن الحظ اننى لا انسى الأشياء بسهولة.

قال دومنيك بشئ من السخرية. رفعت مارتينا وجهها إليه وقالت بثقة.

– يبدو ان اسمى ينكأ جرحاً قديماً لديك يا سيد دومنيك

– كلا يا أنسة كيلك. لا تحاولى تفسير الأمور بهذا الشكل.

استمرا فى عملهما بصمت فى ما تبقى من عصر ذلك اليوم لم تستطيع مارتينا أن تستشف ما يجول فى ذهن تيفولا وهو منكب على رسومه وارقامه، بينما جلست هى إلى مكتبها تدون الملاحظات التى طلبها منها تيفولا

وذهنها منشغل فى أمور أخرى. تفكر فيما إذا كان دومنيك يحاول استغلال وضعها فى تريفينون للحصول على متعة عابرة منها. وأحست بالألم يعتصر قلبها حين تذكرت صمويل ومعاملته لها تعرف انها جميلة وذات جاذبية. لذا ليس من المستبعد أن ما يطمح إليه دومنيك هو علاقة عابرة سرعان ما تنتهى حين ينتهى هو من نيل ما يريده. واعترفت بالم لنفسها بأنها تحبه غير ان هذا الحب أن يبقى سراً فى هذا البيت الملئ بالأسوار. ثم قالت لنفسها بحسة، أهذا ما كان ينقضى؟ أن أقع فى حب من يعاملنى بكل هذه القسوة والإذلال؟

انتهت من أفكارها على صوت نيكولا، يقول بصوت مفاجئ

سأتناول العشاء هذا اليوم في الطابق الأسفل

ابتسمت وقالت

– يبدو أنك قررت العودة إلى الحياة الطبيعية

– نعم. يكفى جموداً على الآن ن أهتم بتدبير أمورى

– ولكنك بدأت بذلك فعلاً حين ارسلتنى إلى حوض الزوارق

– أجل كانت تلك البداية، والآن اذهبى إلى انيز، وبشريها بالأمر. أظن انها ذكرت شيئاً عن بط مشوى. فلنحتفل اليوم بمناسبة عودتى إلى الحياة الطبيعية.

كان صوته طبيعياً وهادئاً، غير انها لم تتخدع به. فسألته

– ما الذى تخطط له يا تيفولا؟

– ستعرفين ذلك قريباً

أجابها ثم انكب على أوراقه ثانية. غير أنه بعد لحظات من الصمت عاد وقال لها.

– والآن، يا عزيزتى، اذهبى وهيئى نفسك للمساء.

استقبلت، انيز النبأ وفسرته بأن هناك حفلة ستقام فى المساء.

كانت جالسة فى المطبخ تقشر التفاح. وقالت.

– سأطلب من زاك، أن ينظف الأوانى الفضية.

– لا حاجة لزاك، أنا سأساعدك فى ذلك

– كلا، أكون شاكرة لو نظفت لى التفاح فقط

دفعت انيز بسلة التفاح والسكين إليها. ثم قالت لها.

– لا تنسى ان تغيرى هذا البنطال القديم. البسى شيئاً آخر ستحضر كارين إلى الحفلة حتماً، وهى عادة تلبس ثياباً أنيقة.

– عندى فستان طويل سألبسه

– لماذا تدعين ضيفتنا تتعب نفسها بالعمل يا أنيز؟

كان ذلك دومنيك واقفاً فى باب المطبخ. ثم تقدم ووقف أمامها وقال لمارتينا.

– أريد التحدث معك على إنفراد يا آنسة مارتينا

نهضت مارتينا وتبعته إلى مكتبه. وهناك سألته.

– تفضل، ماذا تريد؟

– هل تعرفين لماذا يريد عمى أن يتناول عشائه الليلة فى الطابق الأرضى؟

هزت مارتينا رأسها وقالت

– هل هناك سبب معين لذلك؟

حدق فى وجهها مقطباً جبينه ومضيقاً ما بين عينيه

- كل ما يتفوه به تيفولا، أو يفعله هذه الأيام، انما لغاية معينة

- ماذا تقصد؟

- إنه يهيئ نفسه لفتح الجروح القديمة، وانت السبب فى ذلك

- أظن انك تغالى فى تقدير دورى فى الأمور، يا سيد دومنيك

- كلا، انك بريئة من كونك عشيقة لرجل عجوز، ولكنك ما زلت تعملين لتحقيق الهدف الذى خططت له.

أرادت أن تقول له، بأنه مخطئ فى ظنونه. وانها لم تعد تهتم من ناحيتها بأى غاية أو هدف. ولم تعد تهمها سمعة أمها. أن لورا نفسها لم تعط لهذا الأمر أهمية كبيرة. كانت غايتها سعادة تيفولا وراحته. وربما قدرت انها إذا ما ابتعدت عن طريقه، فإنه وباربارا سيصلان إلى نقطة التقاء.

- لا اعتقد انك فهمت الأمر على وجهه الصحيح.

قالت مارتينا، لكنه قاطعها قبل أن تكمل حديثها.

- فهمت جيداً. تريدين إثارة موضوع قديم وطرحه على بساط البحث بشكل علنى، بدون أن تهتمى بالذى سيضرر من عملك هذا.

كارين إنجلس؟ سألت نفسها. أهى من يقلق بشأنها؟ قالت له.

- لا أستطيع فعل شئ

أجاب بضحكة قصيرة وساخرة.

تظهرين الوداعة والبراءة، وتخفين قسوة بالغة، باليدى مارتينا.

- لا تنادينى كذلك من فضلك

- ولم لا، إذا كانت هى الحقيقة؟

سار ووقف قربها حتى تلامس جسدهما، فشعرت مارتينا ان عظامها تذوب وتتحول إلى سائل ملتهب. ونظر إليها قائلاً بصوت حنون ملؤه التحذير

- مارتينا، دعى هذا الأمر جانباً الآن

- إننى آسفة

- ستأسفين على ذلك حتماً

إستدارت وهى تعض شفتيها حتى احست بطعم الدم على لسانها، سارت بهدوء إلى خارج الغرفة واغلقت الباب ثم صعدت السلالم راكضة إلى غرفتها. القت بنفسها على الفراش، وبكت حتى أحست أن الدموع قد جفت فى عينيها.

الغضب البارد
الفصل السابع

حين تأملت مارتينا نفسها فى المرآة، لم يكن هناك أى أثر فى وجهها بسبب عاصفة البكاء القوية، صحيح، أنها كانت شاحبة بعض الشئ، وان عينيها بدتا أكثر إتساعاً عن المألوف، غير أن ذلك ربما كان بسبب الماكياج الذى إستعملته. جمعت شعرها فى عقدة كبيرة فوق رأسها تاركة بعض الخصلات الناعمة تتدلى فوق أذنيها وعلى مؤخرة رقبتها. وارتدت ثوباً أسود اللون مطرزاً بخطوط ذهبية، ولبست حول رقبتها الناعمة قلادة ذهبية رقيقة كانت أنيقة وجميلة حقاً.

أطلت من فوق السلالم على الصالة، فرأت أن قاعة الجلوس كانت مفتوحة الباب، وسمعت أصوات الضيوف وضحكاتهم إذن فقد وصل ضيوف المساء. نزلت السلالم ببطء وهى تفكر بأنها لا تدرى أى نوع من الحقد ستواجه به.

كانوا جميعاً مجتمعين هناك، واذا وقفت فى الباب أدركت انها آخر من وصل. دخلت إلى القاعة بهدوء وقالت بصوت ناعم وجذاب.

- مساء الخير.

خيم الصمت على القاعة التى كانت تضج بالحديث والضحكات لكن سرعان ما هتف تيفولا سعيداً وهو يبتسم.

- يا صغيرتى العزيزة، تفضلى. كم تبدين فاتنة! هيا ليقدم لها أحداً كوباً من العصير.

كان مارك هو من جلب العصير لها، وهمس وهو يقدم لها الكوب

- يا إلهى كم انت جميلة!

ضحكت بنعومة وهى تخفى نظراتها عنه، ثم قادها

إلى المقعد حيث كانت تجلس باربارة إنجلس وكارين، وامرأة أخرى قدموها لها وتدعى ليدى فان تود. ثم سرعان ما استؤنف الحديث الذى انقطع بدخولها.

كانوا يتحدثون عن العطلات. وأخذت كارين تتحدث بحماس عن شواطىء كاليفورنيا حيث مكثت هناك عاماً، وتقارنها بالشواطئ الإنكليزية. أحست مارتينا بالملل من الحديث، فنظرت إلى تيفولا الذى كان جالساً قرب النار، وهو يتأمل الحاضرين بنظرات مبهمة

لم تكن مارتينا وحدها صامتة، كانت باربارة أيضاً قد توقفت عن الكلام وبدت ساهمة بعض الشئ. تأملتها مارتينا وأحست بنوع من الشفقة نحوها. كانت أمها لورا كيلك محبوبة ومدللة من الجميع، وكان هذا يعوضها عما خسرت وعما لاقت من أهل تريفينون. أما هذه المرأة المتوترة الجالسة إلى جانبها، فهى لم تكسب أى شئ من فعلتها الحقودة تلك. والسعادة التى كانت تتوقعها نتيجة تلك النكاية بلورا كيلك، تلاشت قبل أن تلمحها.

أرادت أن تقبض على ذراعها فجأة. وان تهتف بها،

إنهم جميعاً يعرفون ما فعلت، وسيكتمون عنك لمجرد النفاق، وأرادت أن تضع حداً لهذا الموضوع وإلى الأبد. ولكن ليس لها هذا الحق. فهى طارئة على هذه الأجواء. وتيفولا وحده له الحق في اثاره الموضوع.ارتشفت شيئا من عصيرها، واحست بألم خفيف بدأ ينبض في صوغها.أرادت أن تضغط بإصبعيها علي موضوع الالم.لكنها توقفت عن فعل ذلك حين لمحت دومنيك يحدّق فيها .كان العشاء لذيذاً.وقد اضيئت المائده بالشموع، مما زاد من لمعان مائده الطعام، والأواني الفضيه ذات الطراز القديم.تظاهرت مارتينا بالأكل.بينما الحقيقه أنها لم تستطيع أن تأكل شيئاً، فقد أحست بأن بلعومها قد ضاق فجأة بدون أن تجد لذلك تفسيراً.

أما تيفولا فقد كان يحاول دائماً جر باربارا إلى الحديث. وكسر حاجز الصمت الذى أقامته حول نفسها. كان يحدثها عن الذكريات. ويسألها عن أحداث مضت، وبدأت هى شيئاً فشيئاً تتخلى عن صمتها وجمودها. وتعود إليها إبتسامتها وحيويتها.

عادوا إلى قاعة الجلوس بعد أن انتهوا من العشاء.

وجلبت أنيز القهوة، فنهضت كارين وتناولت الصينية منها، وبدأت هى تديرها فى الأكواب وتوزعها. وكأنها هى المضيفة. ثم أخذت كوب دومنيك إليه وهمست له شيئاً وهى تناوله الكوب، فضحكا معاً. وعادت أخيراً وأخذت كوبها وجلست بينما ظل كوب مارتينا فارغاً فى الصينية. فأدركت مارتينا إن ذلك كان تعمداً منها. غير انها سكتت، والحقيقة انها كانت غير راغبة فى شرب القهوة بأى حال بسبب صراعها، لكنها بذلت جهدها للسيطرة على نفسها من ترك القاعة فوراً، إذ كانت واثقة من ان كارين تريد ذلك، وانها تحاول إشعار مارتينا بإنها غريبة وسط أفراد ينتمون لعائلة واحدة.

- كارين، أظن انك نسيت واحدا لم تقدمى قهوة لمارتينا

قال تيفولا بصوت خشن

التفت الجميع إليها، فأحست مارتينا بالدم يتصاعد إلى وجهها والخجل يغمرها. وقالت بصوت مرتعش

-أوه، انى آسفة

هتفت كارين بصوت مسوف فى العاطفة، ثم اردفت.

يالها من غلطة فظيعة! شاهدت كوباً زائداً وظننت انيز قد أخطئت فى العدد ثم أطلقت ضحكة خيفة وأضافت

– لقد حسبت ان المجتمعين هنا هم أفراد العائلة فقط

تكهرب الجو فجأة بعد كلمتها . ولم يبقى هنا لك شك بإنها قصدت إهانة مارتينا. أما مارتينا فشعرت بأنها صنعت على وجهها علامة.

سبق دومنيك الآخرين فى النهوض. اتجه نحو الصنية وملأ الكوب بالقهوة وقدمه إلى مارتينا. شكرته بكلمات غير واضحة.

واختطفت نظرة إلى وجهه. كان هادءاً لا أثر للغضب فيه لم يكن راضياً عن سلوك كارين بدون شك، غير انه لم يبد أى احتجاج على كلماتها الجارحة. ربما كانت تلك الكلمات تعبر عن إحساسه هو تجاهها. أما كلمات تيفولا فقد كانت غاضبة بحيث أربكت مارتينا فى مكانها. حين قال

– ما هذا الكلام يا عزيزتى كارين. يجب ان تعلمى ان مارتينا واحدة من هذه العائلة مثل أى واحد فى هذه الغرفة.

ادركت كارين بأنها ارتكبت خطأ شنيعاً، غير انها لم تعرف كيف تتجاوزه. قالت وهى تبسط يدها أمامها.

- بالطبع. اسأت التعبير. فهمت ان الآنسة مارتينا تعمل هنا كسكرتيرة، ولم يخطر ببالى أبداً

- إذاً إفهمى جيداً الآن.

قال تيفولا وقد غطت وجهه مسحة غضب، ولم يكن أبداً فظاً كالآن. ثم أضاف قائلاً بالإنفعال نفسه.

- لم اعتبرها فى يوم من الأيام سكرتيرة لى. إنها أعز من ابنتى. انها عزيزة مثلما كانت أمها هكذا من قبل

- تيفولا

هتفت مارتينا به، وهى تعصر وجهها الملتهب براحتها لكنه استمر قائلاً بلهجته القاسية.

- لا أريد أن يبقى أحد فى شك، حول مدى تقديرى وحبى لهذه الصغيرة. ثم نهض فجأة مستنداً إلى عصاه. هرع دومنيك إليه ومسكه من ذراعه قائلاً له بلهجة محزرة

- إهدأ

لكن تيفولا حرر زراعه منه بعنف وهو يصيح.

- دعنى. اننى بخير. تعالى هنا يا مارتينا. اعطنى ذراعك عندى مفاجأة لك. لم أهيئها لهذه اللحظة، لكن الأحداث تباغتنى

وبينما هما يتجهان إلى الباب. قالت له بصوت هامس
- تيفولا، ما هذا اللذى تفعله؟

- لا تقلقى، أنا بخير، سيكون الأمر حسناً، صدقينى

كان يرتعش من الغضب، أما هى فكانت مرتعبة من ان تصيبه نوبة قلبية ثانية نتيجة انفعاله. وتبعهما الآخرون بذهول، وكان وجه باربارا شاحباً مثل وجوه الموتى.

فى نهاية السلم اتجه إلى اليمين، وكان تيفولا يلهث من التعب، لكنه واصل سيره بحزم حتى وصل إلى باب فى نهاية الممر. وتركها. وأخذ يبحث فى جيبه. قال دومنيك بصوت بارد

- تيفولا، لا داعى لكل هذه المأساة إكراماً لى

لكن عمه لم يجبه. أخرج من جيبه حزمة مفاتيح،

وأدخل واحداً منها فى قفل الباب وفتحه. لم ترد هى أن تدخل الغرفة لكنه سحبها معه. كانت غرفة والدتها، التى ظلت مغلقة منذ ان رحلت هى من هنا، لم تعرف ماذا خبأ تيفولا لها من مفاجأة. لكنه ظل ممسكاً بذراعها، وهى تحدق فيما حولها.

كانت غرفة نوم جميلة ونظيفة، ذات ستائر طويلة خضراء على النوافذ، وفراش أنيق، أما الأثاث فكان من الخشب الثمين ومن الطراز القديم، وكان هنالك حطب فى المدفأة، ومناشف مرتبة فى زاوية، كل شئ ينبئ ان من كان يسكن هذه الغرفة فى سفر وانه يتوقع وصوله فى أى لحظة، لأنها ظلت مغلقة أكثر من عشرين عاماً.

– ستكون هذه غرفتك يا صغيرتى

قال تيفولا وبحدة وكأنه يتحدى أى واحد يعترض. كانت مارتينا ترتعش، وحين التفتت إلى دومنيك لمحت عليه غضباً بارداً ارتعبت منه. انتابها شعور بأن ترمى نفسها عليه وتقول له.

– إنى آسفة، على كل ما حدث.

لكنها ضبطت نفسها، وادركت انه لن يصدقها، فهو يظن ان كل هذا قد تم التخطيط له مسبقاً بينها وبين تيفولا

كانت تتأمل الفراش الكبير المزدوج، وتفكر ان هذا الفراش لزوجين التفتت إلى تيفولا لتسأله، لكنه أدرك ما يجول فى ذهنها. فقال.

- نعم ان والدتك رتبت هذه الغرفة، وكنت آمل أن تكون غرفتنا.

قالت باربارا انجلس، التى كانت تقف جامدة كالصخرة، شاحبة الوجه، وقد إمتلأت عيناها بالدموع.

- غرفة لورا. يا الهى يجب أن تذكروا الشرف الذى حصلتم عليه بالسماح لكم الدخول إليها بعد كل هذه السنين. ضريح لورا! أطلقت ضحكة ساخرة وتركت الغرفة، وتبعتها كارين. ثم خرج مارك هو الآخر بإشارة من دومنيك، بقى ثلاثتهم يواجهون بعضهم.

قال دومنيك متوتراً.

- اتمنى أن تكون هذه القسوة التى لا مبرر لها قد اراحتك

هز تيفولا رأسه بضجر ورد

– ما كان قصدى أن يحدث هذا كانت خططى مختلفة عن هذا تماماً. لقد فقدت أعصابى، هذا كل ما فى الأمر. ولكن الأمر سيكون على ما يرام.

– أأنت من يقول هذا؟ كيف تتحدث عن المستقبل، إذا كنت ما تزال متعلقاً بالماضى بهذا الشكل؟

قال دومنيك بصوت مزيج من السخرية والغضب

– كفى بالله عليكما. لنترك هذا الموضوع.

قالت مارتينا وهى على وشك البكاء

لماذا؟ أتفكرين فى وقت ومكان مناسبين أكثر من هذا؟

قال دومنيك وعيناه متوهجتان من الغضب. ثم استمر موجهاً كلامه لعمه بنبرة ساخرة.

– يبدو انك كنت حريصاً على الإعتناء بهذه الغرفة طيلة هذه السنين. إنها تبدو نظيفة جدا.

–ولماذا لا؟ كانت انيز تنظفها بأمر منى كل هذه السنين وقفت مارتينا بينهما، وهى تريد أن تردعهما عن هذا الحديث المخزن. وقالت بتوسل.

– رجاء، يكفى الحديث فى هذا الموضوع، انني افضل البقاء فى غرفتى لا أريد هذه الغرفة.

ترك دومنيك الغرفة، بعد ان اغلق الباب وراءه بعنف. وتهالك تيفولا على كرسى صغير بجانبه، وهو منهمك تمتماً فسألته مارتينا بحزن

– لماذا فعلت كل هذا؟

– لقد فقدت اعصابى. كان ذلك خطأ. إننى آسف

وضعت مارتينا يدها على ركبته قائلة وهى تبتسم من خلال دموعها.

– لا تأسف. ستكون الأمور على ما يرام.

ظلا صامتين بعض الوقت. كانت مارتينا خلاله تحدق فيه بحنان. وقد بدالها أنه كبر عشرات السنين فجأة ثم نهض من مقعده قائلاً.

– من الأفضل أن أعود إلى الطابق الأسفل لأرى ما حدث هل ستأتين معى؟

– كلا أظن من الأفضل أن أذهب إلى غرفتى

- هذه هى غرفتك. اننى أعنى ما أقوله. ستبقين فى هذه الغرفة طيلة وجودك فى تريفينون.

لكنى لا أستطيع النوم هنا هذه الليلة. إن جميع حاجياتى فى الغرفة الأخرى

- لا بأس. سينقل زاك حاجياتك غداً. لن تحتاجي لشئ هذه الليلة، فهناك بعض ملابس والدتك فى الأدراج نياب النوم.

وبعض أدوات الزينة. تستطيعين إستعمالها. انها جميعاً لك.

ثم ترك الغرفة. وظلت مارتينا وحدها. وهى تشعر بالبرودة تسرى فى كيانها. تأملت ما فى الغرفة من أشياء وأحست بالدموع تتجمع فى عينيها ثانية وفكرت لماذا لا تهرب من هذا البيت وتنقذ نفسها من كل هذه الآلام والمحن؟ ثم كيف ستواجه كارين بعد اليوم؟ وتمنت أن لا تكون هنا حين يتزوج دومنيك من كارين، فذلك شئ لا يمكن تحمله إطلاقاً.

ثم تركت الغرفة ومشت على رؤوس أصابعها، حتى

وقفت فى نهاية السلم، وهى تنصت لما يجرى من حديث فى الطابق الأسفل.

كانت الأصوات جميعها رجالية، لذا عرفت أن كارين وعمتها قد غادرتا البيت. وقد دهشت لذلك. ثم سارت إلى غرفتها. ورغم أن بقاءها فى هذه الغرفة إنما هو وقتى فقد شعرت انها فى بيتها الحقيقى. دخلت فى الفراش واحست بالدفء، لكن الأفكار بدأت تتزاحم فى رأسها وجاهدت كى تطردها لكن بدون جدوى.

استيقظت فى الصباح متعبة من الأحلام المزعجة التى رأتها في الليله الماضيه. ولمحت من النافذه الصباح الجميل بمفردها، وقبل ان تدب الحركه في البيت وتبدأ المشاكل ثانيه، تركت فراشها وأخذ ت حماماً سريعاً، ثم ارتدت ملابسها، ونزلت الي الطابق الاسفل. اكتشفت ان الباب الرئيسي مفتوح وهذا يعني انها ليست وحدها المستيقظه باكراً فهناك من سبقها غادرت البيت وواصلت سيرها باتجاه البحر ولم تكن قدإبتعدت طويلا حين سمعت صوت محرك سياره خلفها، إستدارت فشاهدت

سـيـاره دومنيك واقفـه امـام البيت، ثم نزل هو، قـررت مـارتينا ان تتجاهله وان لاتتحدث معه، فواصلت سيرها لكنها سمعته يناديها

- مارتينا. إنتظري لحظه لم تشأان تلتقي به فاستمرت بدون ان تلتفت اليه،لكنها سمعته قادماً من ورائها، وكانت خطواته سريعه، فانتا بها الذعر، فأسرعت في خطواتها، غير انها ادركت انه هو الاخر يسرع في مشيته. وآخيراً وجدت نفسها تركض، ولكن الي اين؟ولماذا تهرب؟ انها ستواجهه حين تعود الي البيت، فالماذا الهرب منه الان؟ وابطأ ت في سيرها الي ان حاذاها وقال بصوت بارد

- لاتتظاهري بأنك لم تسمعيني وانا اناديك، ثم لماذا تهربيني مني؟

- لقد سمعتك. أما لماذا اهرب منك، فأظن ان السبب واضح

ماأريده هو ان اتحدث إليك

لاأظن هناك شيئا تقوله لي، أحب سماعه أطلق ضحكه قصيره، ثم قال

- أوافقك علي ذلك، لكن هناك أشياء يجب ان تقال وفي مقدمتها اني مدين لك بكلمه إعتذار. لقد كنت فظآ في الليله الماضيه والحقيقه اني فقدت إعصابي

- على أيه حال، ليس للأمر أهميه.

- بل انه مهم بالنسبه إلي

قال هذا ومد يده إلي ذقنها محاولارفع وجهها إليه لكن مارتينا تراجعت خطوه الي الوراء مبتعده عنه ثم أضاف قائلآ

- إنك غفرت لتيفولا إنفعاله. فلماذا ياتري لاتعامليني مثله؟

- بالطبع لاأعاملك مثله، فأنا احبه جدآ

- ولاتحبيني أليس كذلك يا مارتينا؟

- هل حقآ تتوقع مني ذلك، وانت تعاملني بهذا الأسلوب منذ وصولي في اول يوم؟

ثم إستدارت وواصلت سيرها تجاه البحر . ورفعت رأسها تجاه الريح، فأحست ببرودتها تخفف من حراره وجهها .وظل السؤال يعاودهاباستمرار.

تري ماذا يريد مني ؟لماذا يلاحقني باستمرار؟إذا كان يكرهني فلماذا لايتركني وشأني؟

تجولت طويلاً فوق الصخور العالية، وهى تتأمل البحر وتكسر الأمواج على صخور الساحل، والذبد الأبيض المتطاير منها. والطيور التى تحوم على الشاطئ، والأشجار وأكواخ عمال المناجم المهجورة، وتمنت لو انها جلبت معها عدة الرسم، إذاً لكانت رسمت هذه المناظر البديعة، ولحتفظت بها كذكريات لهذه الأيام المليئة بالأحزان ثم عادت ادراجها إلى البيت.

– ها أنت أخيراً!

قالت انيز حين رأتها، وكانت قلقة بسبب تأخرها، ثم أضافت.

– لقد قلق السيد تيفولا عليكى. أين كنت كل هذا الوقت؟

– ذهبت فى نزهة، ويبدو أننى تأخرت.

– هيا الآن الإفطار جاهز. وسيصعد زاك إلى غرفتك لنقل حاجياتك إلى الغرفة الجديدة، إننى سعيده لأن

السيد تيفولا قد فتحها بعد كل هذه السنين.

– إنها غرفة جميلة، لكنها كبيرة علي، أفضل البقاء فى غرفتى.

– كلا انها أفضل من الغرفة السابقة، ثم ربما لن تبقى وحدك فيها. ربما ستجدين من يشاركك فيها.

قالت انيز وذهبت إلى المطبخ. تاركة مارتينا فى حيرة. وفكرت ما الذى تقصده من كلامها هذا. هل رأتها حين كانت واقفة مع دومنيك هذا الصباح. وهل تظن انهما على علاقة؟

دفعت مارتينا باب قاعة الطعام بعد تردد، ودخلت كان مارك وحده جالساً هناك.

– مرحباً مارتينا. كيف انت هذا الصباح؟

– كالعادة، وأنت؟

– أظن ان ما حدث الليلة الماضية، لم يكن له أى مبرر

– من الأفضل أن تسأل تيفولا. هو الذى أثار كل تلك الضجة.

– صحيح رأيتك متأثرة أكثر من الآخرين. لقد اسفت على باربارا كانت صدمة كبيرة لها. وإهانة شديدة. كارين أخذتها بالسيارة، لم تكن قادرة على القيادة، ثم إننى لم أشاهدها وهى تبكى مثل البارحة.

– إننى آسفة

– لا أحد يلومك، ما ذنبك انت؟

قال مارك، ثم أضاف وهو يبتسم

– ما رأيك ان نتعشى معاً فى الخارج؟

– معك؟

– أهو أمر غريب يستوجب كل هذه الدهشة؟ لقد خابر بيدى مساء أمس ودعتك للعشاء ولم أشأ أن أناديكى على الهاتف لإنك كنت فى غرفتك بعد الذى حدث، فطلبت منى أن أبلغك، ثم ودعتنى أيضاً.

– أعتقد ان هذا ليس السبب الوحيد

– ربما. إذا وافقت على المجئ. من الأفضل ان لا تذكرى ذلك لأحد.

– وماذا نفعل؟ هل نسرق أنفسنا من الآخرين، ونتسلل من البيت تحت جنح الظلام؟

– كلا سأقول لهم إنى آخذك إلى بورت فينور

– تقصد بالآخرين أخاك. أليس كذلك؟ حسناً لا يهمنى. إذا كنت مهتماً بأن لا تجرح مشاعره، فدعنى وشأنى لأذهب وحدى إلى سانت اينا هذا المساء.

صب مارك المزيد من القهوة لنفسه، وهو لا يرفع عينه إليها، ثم قال.

– الأمر ليس بهذه البساطة. انت تعرفين اننى وبيدى كنا على علاقة سابقاً.

– نعم اعرف ذلك هى التى أخبرتنى

– لا ادرى ماذا قلت لك بعد. لا أريد ان اعرف الحقيقة.

– لم يرضى اخوك عن تلك العلاقة، وطلب انهائها

– نعم. ربما تستغربين ضعفى، وكيف رضخت لطلبه. الحقيقة اننى فعلت ذلك ظاهرياً، وحاولت ان أقنع دومنيك مع الأيام لكننى حين ذهبت لرؤية بيدى بعد

انقطاع، رفضت الإصغاء وطردتني.

- ولماذا لم تشرح الأمر لها منذ البداية؟

- حدث كل شئ بشكل مفاجئ. والواقع ان شخصاً ما أثار دومنيك ضدنا.

- كارين إنجلس ربما

- نعم. لا أدرى ماذا قالت له، لكنها نجحت فى تسميم مشاعره تجاه بيدى.

حين انتهت مارتينا من فطورها، صعدت لكى، تجمع حاجياتها حتى ينقلها ذاك إلى غرفتها الجديدة. جمعت كل حقيبتها، وذهبت إلى الغرفة الأخرى، ومكثت هناك تنتظر، حتى جلب ذاك الحقيبتين، مع رزمة كبيرة.

- آسفة لإزعاجك يا سيد زاك . ولكن ما هذه الرزمة؟

- إنها رسومك التى جلبتها معك. لقد تم وضع إطارات لها فى بنزاس. سأثبتها على الجدران هنا.

فكت مارتينا خيوط الرزمة بأصابع مرتعشة. ثم فتحتها كانت رسوم والدتها وقد أحيط كل منها بإطار

ثمين من الطراز القديم. لقد كانت تتساءل دائماً. ترى ماذا فعل تيفولا بالرسوم؟ ربما تركها جانباً ولا يود رؤيتها لأنها تسبب بعض الشجن له. لكن ها هو إذاً قد بعثها لبنزاس لتأطيرها.

أحست بالدموع تتجمع فى مآقيها. وكانت راغبة فى البكاء بشدة. علق زاك الرسوم على جدار مواجه للنوافذ. بإرشاد منها. حتى يقع الضوء عليها وتراها واضحة أول ما تفتح عينها فى الصباح. حدقت فيها طويلاً حين ظلت وحدها فى الغرفة، وفكرت، ترى ماذا كانت ستقول والدتها لو عرفت ان رسومها قد انتهت إلى غرفتها فى تريفينون؟ ثم ماذا تريد هى أكثر من هذا؟ ما كان قصدها من المجئ إلى هنا هو هذا؟ ها هى أمنيتها قد تحققت. أحست بالباب وقد انفتح بهدؤ بينما ما تزال هى تتأمل الرسوم. وإن شخصاً ما دخل إلى الغرفة. ظنت انه تيفولا. جاء ليرى مدى تأثير هديته عليها. فقالت بدون ان تلتفت اليه.

– تيفولا إنك عطوف على جداً. لا أدرى كيف أجازيك لكن حين التفتت إليه، ماتت الكلمات بين شفتيها وشحب

لونهـا. كان الواقف هو دومنيك، تقدم خطوة أخرى منها وقال بإنزعاج.

- ما هذا، لماذا تغير لونك هكذا، هل أزعجتك بدخولى؟

- كـلا بالعكس. اننى حـزينة لأننى رأيت ثيـاب أمى وخـواتمهـا. والآن هـذه الرسـوم قـد علقت فى غـرفـتهـا. أحس وكأنها معى الآن.

- بالطبع لا أتوقع منك ان تفهم مشاعرى.

- كلا، لا يهمنى ذلك جئت لأتحدث معك فى موضوع ما. لكن يبدو ان الوقت غير مناسب الآن.

- ليس هناك ما نتحدث به، دعنى لوحدى بسلام أرجوك.

قالت مارتينا متوسلة وقد أغمضت عينيها، ووضعت وجهها بين راحتيها. لم يقل دومنيك أى شئ. بينما ظلت هى فى وضـعهـا للحظات. وحين فتحت عينيهـا وجدت نفسها وحيدة فى الغرفة فهتفت بصوت مختنق.

- أوه دومنيك؟ يا حبيبى

لكن لم يكن هناك أحد ليسمعه

لن أفكر بك
الفصل الثامن

علقت مارتينا آخر كرة زجاجية ملونة فى مكانها ثم نزلت السلم الصغير، وتأملت شجرة عيد الميلاد طويلاً، وكانت قد بذلت جهداً كبيراً حتى أقنعتهم بجلب هذه الشجرة، ووضعها فى هذه الزاوية.

– شجرة عيد الميلاد؟ وفى بيت جميع من فيه غير متزوجين؟

قال مارك مندهشاً

– ولماذا لا؟ ربما ستجلب الحب والخير إلى البيت

أجابته مارتينا التى أنفقت فى خلال الأسابيع القليلة

الماضيــة الكثيــر من الوقت مع مـارك، حتى ان دومنيك سـألها مـرة غـاضبـاً فيـمـا إذا كـانت متـأكدة مما تفـعل. فضحكت وأحسـت بسـعـادة كبـيـرة من غيـرته عليـهـا. وفى مناسبة أخرى قال لها أيضاً.

– يبـدو ان مـارك مـصـمـم على ان يجـرب حظه مـعك فضحكت، وطمـأنته بأن لا أحد يقدر ان يفوز بقلبهـا غيره فلم تـرغب ان تخـبـره بـأن العـلاقـة بين مـارك وبيـدى قـد عـادت إلى مـجـراهـا الطبـيـعى. منذ تلك الأمـسـيـة التى ذهبت معه إلى سانت اينا لتناول العشاء فى بيتها.

القت نظرة أخيرة على شـجـرتها. وتهيأت لتـرك قاعة الجلوس بعد ان تضئ أضواء القـاعة كلها. ربما ستـجلب نجـمـة الأمـل التى علقـتـهـا على الشـجـرة. الحظ لمارك وبيدى على الأقل.

أما تيـفولا وباربارا فيبدو انه ليس هناك من أمل كبير فى تحـقـيق سـعـادتهـمـا مـعـاً. إذ لـم تقـتـرب باربارا من تريفينون منذ تلك الليلة التى أقيمت فيها حفلة العشـاء. واستنتجت مارتينا من مـلاحظات أبداها تيفولا ان باربارا

لم تعد تعمل فى حوض الزوارق. متعللة بالمرض

أما كارين فلم تنقطع عن الظهور، بالرغم مما حدث، وبدا واضحاً، انها قررت التغاضى عن حقيقة انها هى التى كانت السبب فى كل ما حدث. وتصرفت بروحية تومى بأنها قد سامحت الجميع مع سلوكهم فى تلك الليلة، وكأن ما حدث كان بسبب الآخرين لا بسببها وهذا ما جعل تيفولا ينسحب إلى غرفته ويغلق الباب عليه كلما ظهرت كارين فى تريفينون

حين أمسكت بقبضة الباب حتى تفتحه، خفق قلبها بعنف لقد سمعت صوت كارين فى الصالة الخارجية. ترددت للحظة هل تخرج أم تمكث حيث هى، إذ ربما ستذهب كارين بدون ان يطول بقاؤها. لكنها فى الأخير دفعت الباب وخرجت.

كانت كارين هناك مع دومنيك يقفان معاً. وندمت مارتينا على خروجها للقاعة فى هذه اللحظة غير المناسبة

التفت دومنيك إليها. فالتقت نظراتهما فى لمحة خاطفة وقال

– أهلا مارتينا. سأطلب من انيز ان تحضر لنا شيئاً من القهوة. هل تشاركيننا؟

– كلا شكراً اننى أرتب قاعة الجلوس، وحالما انتهى منها سأبتعد عن طريقكما

– لم أكن أعرف انكى تقفين فى طريقى

قال دومنيك وذهب تجاه المطبخ

– ماذا كنت تفعلين هناك؟

سألت كارين وهى تنظر إلى علب الكرات الملونة والأشرطة التى فى يد مارتينا

– زينات عيد الميلاد. تعرفين، بعد غد هو عيد الميلاد

– أعرف ذلك بالطبع.

قالت كارين وهى تبتسم، ثم سارت إلى قاعة الجلوس وهتفت.

– أوه، يا إلهى. فكرة من كانت هذه الزينة الجميلة؟

– فكرتى. ألا تحبين أشجار عيد الميلاد؟

– أحب أشجار عيد الميلاد فى أماكنها، فى الساحات العامة فى الفنادق مثلاً أما هنا فى هذا البيت، وفى هذه الغرفة فأظن انها ليست مناسبة. واعتقد ان انيز لن تشكرك على هذا.

– أنيز سعيده جداً بهذه الزينه

– هكذا أذن

قالت كارين مبتسمه؛ ثم أضافت

– لا يغرنك رضا انيز فهى ليست أكثر من خادمة فى هذا البيت مجرد عاملة مثلك.

– لو كنت فى محلك لكنت أكثر حذراً. ولما سمحت لأحد أن يسمعنى وأنا أتحدث بهذه اللهجة.

– لا تنسى أن وضعينا مختلفان تماماً. فهذا البيت لن يكون بيتك النهائى. ولن تكونى هنا سيدة فى يوم من الأيام.

– وهل ستكونين انت كذلك؟

– بالطبع..

قالت كارين بنبرة سعيدة وواثقة، ثم أردفت بعد لحظة

سكوت ثم أضافت

- ودومنيك إقتنع بأننى سأقوم ببعض التغييرات فى البيت وبالطبع فان زوجين فى بداية زواجهما لا يرغبان فى ان يشاركهما عدد كبير من الناس حياتهما. وانيز بالطبع مخلصة لتيفولا، فلا أظن انها ستبقى هنا حين يذهب هو.

قالت مارتينا وهى تهز رأسها غير مصدقة.

- وستطردين تيفولا من بيته؟ لن تقدرى على إرتكاب مثل هذا الفعل. انه رجل عاجز ومريض.

أجابتها كارين ببرود وهى تلوى شفتيها

- لقد تحسنت صحته تماماً. ربما سيعيش سنوات طويلة بعد لا أريد أن أبدأ حياتى الزوجية فى ظله. انه يتصرف وكأنه ما يزال هو السيد هنا. وهذا وضع لست مستعدة لقبوله.

- وهل يوافقك دومنيك على هذا؟

- دومنيك يحبنى. ولا يبخل على بأى شئ أريده

أجابت وعلى وجهها إبتسامة رضا، ثم أضافت وهى تنظر إليها بكبرياء وغرور.

– انصحك ان تجدى لنفسك مأوى آخر. يا أنسه كيلك فأخشى أن تكون أيامك معدودة فى هذا البيت. صدقينى

– أعرف ذلك جيداً، وقد رتبت أمورى ان أترك هذا البيت فى بداية العام الجديد.

– وإلى أين تذهبين؟ تبقين تدورين حول تيفولا. حتى يعطف عليك ويأخذك معه إلى بيته الجديد. اليس كذلك؟

– كلا، سأذهب إلى لندن وأجد لى عملاً حتى الربيع، وبعده آمل أن اذهب إلى جارجسون لأخذ دروساً فى الرسم.

– دروس خاصة؟

– نعم. مع لينو كريستى

– يا إلهى إنك تحلقين عاليا مع أحلامك. ترى من أين ستجدين النقود التى تكفى مصاريف لهذه المدرسة؟

من رصيدك فى البنك، وانت مجرد فتاة عاملة؟ أم انك تتوقعين ان يمدك تيفولا بالمصاريف

ألا تعرفين انه وضع كل ما عنده فى مشروع حوض الزوارق ولم يعد يملك بنساً واحداً؟

أخشى ألا تجدى أحداً فى هذه العائلة يشتريك ببنس واحد.

أرادت مارتينا أن تضربها على وجهها بالعلب التى فى يدها لكنها ضبطت نفسها وقالت لها بهدوء وبرود أعصاب

- من فضلك لا تقلقى بشأنى..

ثم تركتها مارتينا واقفة. وعبرت الصالة وصعدت السلالم بدون ان تلتفت إلى الوراء. كان قلبها يخفق بشدة. وشعرت بالألم يسرى فى جسدها. ثم تساءلت ترى هل يعرف دومنيك ما تخططه خطيبته. وزوجة المستقبل؟

أم انه مغرم بها لدرجة انه لا يعير اهتماماً لأى شئ سواها؟

دفء فوق صخور الثلج
الفصل التاسع

مرت الأيام فى قصر تريفينون .. ومارتينا بالحنان الأبوى من تيفولا والمرح من مارك. أما دومنيك.. فكانت علاقته بها أشبه ببرودة القطب الجنوبى.

ورغم ذلك كان هناك شعوراً ما يخترقها ويتخلل فى مسامها ويتنامى يوماً بعد يوم.. كانت تحاول بكل ما أوتيت من إرادة مقاومة هذا الشعور وقتله فى مهده.. ولكن إحساسها الوليد أبا أن يموت ولكنه تمرد وثار على كل إرادتها وصار سيداً لكل أعصابها.. كان هذا الشعور هو حب .. نعم حب دومنيك ورويداً.. رويداً بدت لها حقيقة لم تستطع الفكاك منها أو الفرار.. وهى انها

تمكث هنا فقط لتكون بجواره.. بجوار دومنيك.. وفى ليلة عيد الميلاد قررت ان تتمرد على نفسها.. ان ترفض كل هذا الخنوع كيف يتأتى لها ان تحب من عاملها بكل هذه القسوة والبرود وأراد إزلالها وإراقة دم كرامتها من خلال ذكرى أمها..

وقررت الرحيل..

وحين اكتشفوا اختفائها من البيت.. تجمع الكل فى غرفة الجلوس يتدبرون الأمر.. فى الوقت الذى طلبت مارتينا من سائق التاكسى ان يتوقف على بعد من البيت، خشية ان يسمع أحد فى الداخل صوت السيارة ونزلت

فتحت الباب فى هدؤ كان الضؤ خفيفاً فى الصالة، وكان باب قاعة الطعام مغلقاً. تنبعث منها أصوات مبهمة، فصارت على أطراف أصابعها حتى قاعة الجلوس، وتركت مظروف كان فيه صورة رسمتها لنفسها وكتبت على المظروف اسم دومنيك تركته مع بقية الهدايا تحت شجرة عيد الميلاد، ثم غادرت البيت كما دخلت بهدؤ

فى الطريق التفتت إلى الوراء والقت نظرة أخيرة على

البيت وفكرت انها ستحن اليه رغم ما قاست فيه من آلام كما انها ستفتقد الشاطئ وأمواج البحر. فقررت ان تذهب وتلقى آخر نظرة على الساحل الأسبانى قبل ان تترك هذه المنطقة إلى الأبد.

سارت على ضوء المصباح اليدوى، حتى وصلت إلى الساحل، وكان الثلج ما يزال يسقط رغم انه خف قليلاً، ووقفت فوق الصخور وتطلعت إلى البحر، وإلى الأمواج التى تتكسر على الساحل مخلفة «شريطاً» أبيض من الذبد، وأصغت إلى الهدير الذى كان يأتى فى فترات منتظمة.

وجهت ضوء البطارية إلى الصخور، حتى وجدت مكاناً يمكن النزول منه. فأخذت تنقل خطواتها بحذر خشية الإنزلاق فالسقوط بسبب الثلج المتجمد، فنزلت عدة خطوات، ثم فجأة ذلت قدمها وفقدت توازنها وهوت على الساحل وهى تطلق صرخة قوية.

أحست بألم شديد فى ساقها وحاولت ان تحركها لكنها شعرت بالإغماء فتيقنت ان كاحلها قد أصيب بالتواء ظلت فى مكانها فترة وهى ترتجف من الألم

والبرد. ثم أخذت تزحف على يديها شيئاً فشيئاً باتجاه الصخور ساحبة رجلها ببطء. وأسندت ظهرها إلى الصخور المتجمدة وأغمضت عينيها. إذا عليها ان تظل هنا حتى الصباح حتى يأتى من ينقذها ويحملها إلى سانت اينا. أما كان جنوناً منها ان تأتى إلى هذا المكان الموحش فى منتصف الليل؟ أما كان بالإمكان ان تأتى فى النهار وان تمنع عنها كل هذه الآلام؟

فتحت عينيها، ورأت ان الأمواج تقترب منها أكثر فى كل مرة. وان مساحة اليابسة التى بينها وبين الماء تتقلص شيئاً فشيئاً. ان ذاك عرفت أنه المد وانه سيرتفع حتى يغمرها. وربما يجرفها معه إلى البحر..

أطلقت صرخة قوية، لكن صوتها لم يخرج إلا ضعيفاً أشبه بالمواء وشعرت بالمياه وقد غمرت قدميها. فاستسلمت يائسة ليأخذها المد فى منتصف الليل، ويسلمها إلى البحر، ولينتهى هذا العذاب إلى الأبد.. وداعاً يا تريفينون، وداعاً أيها الأحباء، وداعاً يا دومنيك. فقط لو عرفت كم كنت صادقة فى حبك. لو كنت عطوفاً معى مرة واحدة، واسمعتنى كلمة حب واحدة، كم أحببتك

يا دومنيك.. دومنيك.. دومنيك..

تناهى إلى سمعها صوت، صوت دومنيك وهو يهتف بإسمها مارتينا.. مارتينا. فاستسلمت للحلم الجميل وللمد الذى غمرها حتى منتصف جسدها، وفجأة شعرت بذراع قوية تحيط بها وتحملها وتشدها إلى صدر حبيب، وصوت دومنيك قائلاً لها بلهفة.

– يا حبيبتى لقد وجدتك انت سالمة. إهدأى، إهدأى ولف ذراعه حول رقبتها.

وفكرت انه حلم لذيذ، ما أكثر الأحلام فتركت نفسها يحملها شبح أسود ويذهب بها.

حين فتحت عينيها كان هناك ضوء خفيف فى الغرفة، فعرفت أنها لم تكن فى حلم، أدارت عينيها فيما حولها، كانت نائمة فى فراشها وانيز تحدق فى وجهها

ووجدت يدها فى يد دومنيك.. فسحبت مارتينا.. يدها بلطف من يده. وهى تحدق فى وجهه. فقال لها بحنان رائع

– إننى أحبك يا مارتينا. بل أحببتك منذ تلك الليلة

التى إلتقينا فيها على الطريق . وكان غضبى اننى اكتشفت من انت، كنا ما نزال نعيش فى ذلك الوهم الخاطئ بأن والدتك قد أساءت الينا. أوه مارتينا لو تعرفين كم أحببتك. لقد جننت حين اختفيت من البيت شكراً لله لأنك وضعتى تلك الرسالة تحت شجرة عيد الميلاد. آن ذاك عرفت أنك ما زلت قريبة من البيت، فأخذت مصباحى وخرجت فلمحت آثار أقدامك على الثلج فتبعتها إلى هناك.

مد يديه إلى جيبه وأخرج علبة مغلفة بالقطيفة الحمراء فيها حلقة ذهبية، وضعها فى اصبع مارتينا، ثم رفع يدها وطبع عليها قبلة رقيقة، قائلاً

– يا زوجتى الحبيبة!

مدت مارتينا زراعيها وأحاطت بهما عنقه، وهى تحدق فى عينيه بسعادة. وهى تحس بأن كل عذابات عمرها الصغير تذوب كما ذابت الثلوج حبيبها دومنيك وقالت وهى فى شبه الحلم

– سنكون معاً إلى الأبد...